2020
2.1.2020

الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز

سلسلة الجوائز
٤٠

رواية

خوان خوسيه ميّاس

هكذا كانت الوحدة

ترجمة: ناريمان الشاملي

هكذا كانت الوحدة

رواية

خوان خوسيه مياس

ترجمة: ناريمان الشاملي

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير	دكتور: ناصر الأنصاري
نائب رئيس مجلس الإدارة	دكتور: وحيد عبدالمجيد
نائب رئيس التحرير	دكتور: سهير المصادفة
الإشراف التنفيذي	السيد أبو شادي
مدير التحرير	السماح عبدالله
سكرتير التحرير	وردة عبدالحليم
التصميم الجرافيكي	دكتور: مدحت متولي
الإخراج الفني	صبري عبدالواحد
	على أبوالخير

مياس، خوان خوسيه.
هكذا كانت الوحدة: رواية/ خوان خوسيه مياس؛
ترجمة ناريمان الشاملي . ـ القاهرة : الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩
١٨٤ ص ؛ ٢٠ سم.
تدمك ٨ ٦٨٥ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإسبانية.
(أ) ـ الشاملي، ناريمان (مترجم)
(ب) ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٥٥٦/ ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 685 - 8

ديوى ٨٦٢

- الكتاب: هكذا كانت الوحدة. LA soledar ear esto
- تأليف: خوان خوسيه مياس. Juan José Millás
- ترجمة: ناريمان الشاملى.
- يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

- جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر والخارج.
- جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلف.

Copyright © Tuan José Millás, 1990.

- الطبعة الأولى ٢٠٠٩
- طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

فی دکری کاندید اجارثیا

أكان يرغب فعلاً فى أن يدع الغرفة الدافئة المفروشة على نحو مريح بأثاث موروث تحول إلى كهف، يكون من شأنه هو أن يزحف فيه بلا إزعاج نحو كل الاتجاهات طبعًا، ولكن مع نسيانه، فى آن، ماضيه الإنسانى نسيانًا كليًا سريعًا؟ (*)

فرانز كافكا، رواية التحول

(*) ترجمة باللغة العربية منقولة من الألمانية مباشرة للمترجم والناشر إبراهيم وطفى فى كتابه الآثار الكاملة لفرانز كافكا مع تفسيراتها، ص ٢٦٤.

الجزء الأول

كانت إيلينا تنزع الشعر عن ساقيها فى الحمام عندما رن الهاتف ليعلموها بوفاة أمها. نظرت إلى الساعة بشكلٍ غريزى وعملت على حفظ الوقت فى رأسها؛ كانت السادسة والنصف مساءً. على الرغم من أن النهار قد بدأ يطول إلا إنه بدا كالليل بفعل بعض السحاب الذى كان، منذ منتصف النهار، قد اتخذ مكانًا على هيئة سقف فوق المدينة. فكرت والسمّاعة فى يدها فى أن هذه أفضل ساعة للرحيل عن ذلك العالم. فكرت فى هذا بينما كانت تستمع لزوجها الذى كان، من الجهة الأخرى، يحاول أن يكون إيجابيًا وحنونًا فى الوقت نفسه. قال لها:

ـ سأمر لآخذك وسنذهب معًا للمستشفى. أخوك هناك بالفعل.

ـ وأختى؟ من سيقوم بإبلاغ أختى؟

ـ انتهيت لتوى من الحديث مع زوجها وسيأتيان هذه الليلة نفسها فى طائرة تقلع فى العاشرة من برشلونة. لا تقلقى من تلك المسائل. جهزى نفسك وانتظرى مرورى عليك.

وضعت إلينا السماعة وجلست على الأريكة لتُفكِّر فى الخبر؛ أخذت تزيل بيدها اليمنى بقايا الشمع المتجمد عن الساق التى تنتمى إلى ذلك الجانب من الجسد بينما عيناها كانتا تجولان فى حوائط الصالون دون تسجيل أى شىء مما تريان.

عندما عادت إلى الحمام كان الشمع قد تجمّد مما دفعها إلى التخلى عن نزع الشعر عن الساق اليسرى. خلعت الرداء عنها ودخلت أسفل الدش فى وضع يوحى بشىء من اللوعة ولكنها لم تصل إلى حد البكاء. بدا أنها تأكدت من الفكرة القديمة.. من أن موت أمها، عندما سيحدث، سيكون مجرد إجراء بيروقراطى، إجراء لتصْديق على شىء سلف، فبالنسبة لإلينا والدتها كانت قد ماتت منذ زمن بعيد.

اختارت إيلينا جوارب غامقة لكى لا يُلاحظ أن إحدى ساقيها غير منزوعة الشعر، وارتدت ملابس داخلية مثيرة بعض الشىء لتنفى أمام نفسها الألم الذى كانت تحاول أن تعبر عنه الثياب القاتمة المستقذة من أعماق دولاب الملابس.

فضلت ألا تتزين وألا تُجمِّل عينيها، ولكنها لَملمت شعرها المسترسل على ظهرها. لم تكن تريد أن تُظهر حزنًا، ولكن عدم الهندام من الممكن أن يعزى إلى سرعة الخروج من البيت لحظة أن عرفت الخبر. ترددت فى وضع لمسة من أحمر الشفاه ولكنها قررت فى آخر الأمر أنها على ما هى عليه جميلة إلى حد

ما، على الرغم من أنه كان جمالاً فى انحدار بسبب الثلاثة والأربعين عامًا التى كانت قد سلفت من عمرها. ثلاثة وأربعون عاما لم تستطع أن تنال من بريق عينيها ولا أن تقوِّم الملمح المتحدى لشفتيها. جعدت التنورة لتؤكد على إحساس العجلة وعادت إلى الصالون حيث قامت بلف سيجارة محشوة دخنتها بجانب النافذة الكبيرة مراقبة ذبذبات الضوء. كانت تعيش فى طابق علوى فى شمال مدريد حيث يُرى منه منظر حضارى كان يبدو أنَّه يتغير طبقًا لتلوّن الشهور. كان الوقت هو شهر فبراير، وكانت قد أظلمت حتى إن المبانى بأنوارها المضاءة من النوافذ تدعو إلى العزلة. فكرت فى مِرْسِدِس، ابنتها، وكبحت رغبتها فى مهاتفتها، فلقد تصورت أن زوجها سيكون قد تكفّل ذلك.

عندما أطفأت السيجارة الملفوفة، حاولت استحضار فكرة لامعة أو حزينة تتناسب وحالة الفقدان التى تعانى منها، ولكن شيئًا لم يحدث. كان يبدو موت أمها، بالإضافة إلى كونه واقعة، مجرد حدث مرتبط بتعاقب الأيام وبلا قدرة على عمل شىء لوقف أو لتحقيق نصر على كل ما يرتبط بالحياة اليومية. كان تأثير الحشيش قد بدأ، وتوقعت أنها فى المشاهد التى سيتوجب عليها أن تشارك فيها على مر الساعات التالية ستكون إلى جانب الموتى، فى ذلك المكان حيث توجد أمها الآن، ومن حيث افترضت أن أشياء الحياة كانت ستُرى بلا شغف، وبلا حنق، وبلا

حب: نظرة محايدة محملة باللامبالاة، ربما قد تكون محفزة بنوعٍ من الفضول الموجَّه إلى الأوجه الآلية التى تنتجها العواطف.

خلال هذا وصل زوجها إنريكى وضمها إليه مُظهرًا تضامنه ومُحاولاً تخفيف ألمٍ لَمْ ينبثق بعد. ابتسمت إيلينا بانفعال وقالت:

ـ هأنت تعلم ما كنت أفكر فيه حول تلك الوفاة.

ـ لم أصدق أبدًا أى شىء من هذا.

خشيت إيلينا من أن يذهب عنها تأثير الحشيش، فلفَّت سيجارة أخرى بحجة تقديمها لإنريكى، ثم قالت:

ـ سندخنها فى السيارة.

وخرجا.

كانت أمها، أخيرًا، تبدو مبتسمة. ترتدى كفنًا أبيض يستحضر فى مخيلتها رداء الراهبات الجدد الذى من بين طياته يبرز وجه كان الموت قد حلاَّه. كانت بلا حراك كجثة، ولكن جبهتها المجعدة كانت تبدو أنها تحتوى على توتر من يفكر فى شىء ما. واحدة من العينين ظلت مفتوحة بعض الشىء محدثة تأثيرًا غير متناسق مع الوجه، مما ذكَّر إيلينا بأنها لم تنزع الشعر عن ساقها اليسرى. هل كانت الحقيقة متناسقة أم أن التناسق كان مثالية ناتجة عن ذكاء بنى آدم؟ هل كل ما يمكن قسمته إلى النصف لديه قسمان

متجانسان ومتشابهان؟ أين نصف حياتى؟ حدثت نفسها مراقبة ابنتها التى كانت تعتنى بأفراد العائلة والأصدقاء فى تهذيب أليم. هل تترك أمى هنا مكانًا متناسقًا مع الذى تشغله حاليًا؟ هل يترك الأموات انعكاسًا من أنفسهم فى عالم الألم هذا؟ ما الإحساس الذى ينسجم مع الألم؟

أشعرتها الجملتان الأخيرتان بشىء من الرضا، ولكن حالتها النفسية كانت تنحو عمومًا إلى اللامبالاة. اعترفت لواحدٍ كان يقترب منها لتقبيلها:

ـ تخيل، كنت أنزع شعر ساقىّ.

نتج عن لقائها مع أخيها شىء محفز، فالعناق أكد على العاطفة التى كانا يتبادلانها والتى فى مناسبات كهذه كانا يظهرانها دون رقابة الاحتشام. إلا أن أختها كانت باردة ومقتضبة كما لو كانت إيلينا تدين لها بطفولتها. لم تكن ابنتها مِرسِدِس قد اقتربت منها بعد، ولكنها رمقتها بنظرات جانبية حرصت إيلينا على تحاشيها. كانت أمها وابنتها تحملان نفس الاسم. كان هناك تماثل ربما يرمز إلى أشياء لا يمكن إدراكها، كانت كلتا الاثنتين، مِرسِدِس الأم ومرسدس الابنة، متعودتين على الاستهجان بالنظرة والعقاب بالهجر وبالذنب. أنا مركز تلك العلاقة المتماثلة، أنا قلبها وأنا أغذّيها. سألتها ابنتها مقتربة منها أخيرًا بعد تقبيلها:

ـ كيف حالك يا أمى؟

ـ تخيلى، كنت أنزع الشعر عن ساقىّ عندما رن الهاتف. تركت كل شىء بلا انتهاء، الأفخاذ وكل شىء.

فكرت أن كلمة الأفخاذ جاءت فى سياق جيد مع تلك المناسبة الجنائزية. ردت ابنتها:

ـ أنا وزوجى سنبقى تلك الليلة، اذهبى أنتِ للراحة إن أردت.

ـ سيكون من الواجب فعل شىء، الأوراق وكل هذا.

ـ لقد تم إنجاز كل شىء يا أمى لا تقلقى.

تمامًا مثل أختى، تماثل آخر، أنا لست قادرة على أن أتسبب فى الألم الذى تنسبانه كلتاهما إلىّ. تُدعى أختى مِرسِدِس هى الأخرى، مثل والدتى وابنتى. مثل من أنا؟ أشبه مَن من أولئك الأشخاص؟ أيًا من تلك الوجوه الأليمة يُدعى إيلينا ولديه ساق غير منزوعة الشعر؟ هل أنا مرجعية لأحدهم أم فقط نصف تلك الفوضى؟ بماذا أدين لهن؟ بماذا أدين لأولئك النساء ولم أنته من دفعه بعد؟ واحدة منهن مَرَّرَت شبابى والثانية كانت شابّة عندما لم أعد أنا كذلك. كفى، فكل شىء كما هو: والدتى متوفاة خلف الزجاج المُخَصّص لحماية الأموات من الأحياء؛ العائلة والأصدقاء يبدون حزانى؛ زوجى يعتنى بالكل بفاعلية ملحوظة وأنا أروح من جانب إلى آخر بعيون جافة وتنورة مجعدة وساق يسرى مليئة بالشعر، والملابس الداخلية، كفى! "موت الوالدين يغير منظور الحياة"، قالها فى أذنها أحدهم بينما كان يسقط قبلة على خدها. " بمعنى أصح يُقرِّبهَا" أجابته إيلينا بابتسامة

ملائمة للمناسبة، متراجعة نحو محيط تلك الحفلة الجنائزية.

نامت فى تلك الليلة جيدًا، لو كان بهذا يُفهم النوم بكل الحواس وعدم معرفة أى شىء عن عدد الساعات التى نامتها. لم تستيقظ متعبة، ولكنها فعلاً غريبة بعض الشىء عما ألفته عن نفسها فى حياتها، التى اضطرت إلى أن تُعيد بناءها فى اللحظات الأولى من يومها ذاك الذى كانت ستدفن جثة أمها فيه. كان زوجها إنريكى فى الحمام، أسفل الدش، حيث يصل صوت الماء إلى حجرة النوم كصدى مطر بعيد. حاولت أن تسترجع أى مشهد من الليلة، ولكن لم تجد شيئًا عدا أثر جسدها فوق المرتبة كدليل أوحد على أنها قد ظلت هناك طوال تلك الساعات من التشويق. كانت ترتدى بيجاما لإنريكى واسعة عليها، ولكن كانت تروق لها بسبب الحرية التى كانت تتحرك بها أعضاؤها داخلها. فى الواقع كانت تستخدم لمدة طويلة ملابس للنوم رجالية، حيث كانت تشتريها بحجة أنها لزوجها بينما تستولى عليها لنفسها.

نهضت ولاحظت إحساسًا بالكمال جعلها تشعر بغرابة ما. ربما أثناء الليل حدث لها شىء دون وعى منها حيث تُرْجِم الآن إلى تفاؤل جسدى لا يتناسب ويوم حداد.

لم يكن إنريكى فى الحمام.

عرفت حينها أن الذى كانت تستمع إليه من الفراش لم يكون صوت الدش، ولكنه كان مطرًا

حقيقيًا يقع على الجزء الآخر من الزجاج. المطر والموت. ذهبت إلى الصالون وأطلّت من الشرفة. كانت الحرارة قد ارتفعت والجو كان يأخذ فى تنظيف نفسه. تنفست بعمق. شعرت بتغلغل الهواء الرطب حتى أعماق رئتيها، مما أدى بالتأكيد إلى حدوث تأثير كيميائى دعم الإحساس بالكمال الذى كانت قد استيقظت به. قال إنريكى من خلفها:

ـ أعددتُ لكِ قدحًا من القهوة.

ـ أهلا. يوم سيئ للدفن.

ـ لا يوجد يوم جيد لمثل تلك الأشياء.

قال هذا وغرق الاثنان فى صمت اعتيادى فى علاقتهما، بينما كانا يتأملان المطر يسقط بوداعة على الأسقف وأوجه العمارات التى تُكَمِّل المشهد الحضرى الذى كان بالنسبة لهما مشهدًا معتادًا.

بعد تناولها القهوة دخلت إيلينا الحمام، وتَعَرَّت بهدف الاستحمام، ولكنها انتبهت إلى الشعر فى ساقها اليسرى، وبشكل غير مفهوم أخذت فى البكاء على حافة البانيو، وصنعت حركتين أو ثلاثة بعضلات وجهها لترى إن كانت تستطيع أن تتمالك نفسها، ولكن عينيها كانتا تفيضان كطبيعة إناء طافح. كانت تنتوى أن تترك نفسها فريسة للبكاء، ولكنها بردة فعلها الغاضبة، كانت جاهزة بألا تترك حزن الآخرين يؤثر فيها. إلا أنها عندما تركت الاستحمام كان كل شىء مختلفًا. الكمال السابق كان قد هجرها، تاركًا بداخلها

مكانًا شاغرًا بدأ فى التو بالامتلاء بإحساس آخر صعب التصنيف مما كان يدفعها بعجلة أكيدة نحو الإحباط. تذكرت والدها الميت منذ نحو سبع أو ثمانى سنوات، وربما كانت لأول مرة فى حياتها تشعر فيها بأن كلمة يتيمة لها صدى رهيب. قررت أن تنزع شعرها ولكن فجأة وجدت نفسها تسيطر عليها دفعة خرافية نصحتها بعدم الإقدام على ذلك. فكرت حينها أنها كان يجب أن تنهض لمهاتفة مؤسسة تجهيز الموتى ودفنهم والتحدث مع ابنتها، وسؤالها عن الحال فى تلك الليلة التى قضتها الجثة. جعلها هذا تبتسم قليلاً، ولكن منذ تلك اللحظة عرفت أن ثمة شيئًا كان يتعلق بها بشكل خاص كان يحدث منذ اليوم الفائت، بالرغم من أنها تجهل مغزى الحدث والحالة التى كان من الممكن أن تؤثر فى وجودها. ثم فكرت أن زوجها لم يكن ذلك الزوج الطيب، حيث كان يجب عليه أن يعرض البقاء هو الآخر تلك الليلة بجانب الجثة. خلال ذلك، كانت تمشط شعرها كما لو كانت بانتظار قرار لم تتخذه بعد.

أخيرًا قررت ألا تذهب إلى الدفن. كان من الممكن أن يقول إنريكى إنها قضت ليلة صعبة، وإنها أثناء الفجر آلمها القولون. كانت تُريد أن تأتى على الرغم من كل شىء، ولكننى لم أسمحُ لها. كان يتوجب عليه أن يشرح لكل العالم حتى لو لم تصدقاه مرسِدس الأخت ومِرسدس الابنة.

بعد الدفن، مرت بضعة أيام مُتّسمةً بهدوءٍ هشٍ. أمطرت بلا عنف، كما لو كان الأمر عبارة عن عادة تُنجز بتقنية، ولكن عن غير اقتناع. كان الماء يسقط سلسًا فى نقاطٍ صغيرة فوق السقوف والشوارع والمارة الذين كانوا بدورهم يتلقونها بخضوعٍ واستسلام، كانت إيلينا التى لم تزل ذات ساق يسرى غير منزوعة الشعر تتأمل المطر من خلال نافذة الصالون الكبيرة أو من خلال حجرة نومها بهدوءٍ منكسر أيضًا.

كان شهر فبراير يحتضر بلا ضجيج، وعلى حين غرة بدأت أسماء الشهور تكتسب معنى جديدًا. وضعت إيلينا فى مارس أمل الشمس والرغبة فى أن تتوقف الحقيقة عن الظهور بتلك الدرجات الرمادية التى كان يبدو أنه يختفى وراءها تهديد ما. وحدة أثاث الصالون الكبيرة، التى كانت تحفظ فيها أوانى المائدة، كانت تبدو أنها اكتسبت مع الرطوبة درجة من الوجود الحيوى غير قابلة للتفسير. عند مراقبتها من مسافة ما، كان يبدو أنها تغير درجات لونها الداكن،

كما لو كانت تقوم بعمل إشارات ما موجهة للأريكة. من جهة أخرى، من بعيد أيضًا، كانت تعطى الإحساس بأنها تتعرق، كما لو كان بداخل الخشب يحدث نشاط كيميائى ما يحدث على إثره تنفيث لبعض السوائل. عندما كانت تقترب إيلينا من الوحدة وتلمسها، كان ذلك الإحساس يختفى أو يقل. على كل حال أخذت فى فتح أبواب تلك الوحدة باشمئزازٍ واضح.

تلقت ذات يوم مكالمة هاتفية من أختها مِرسِدِس حيث كانت تبدو متلهفة على الوصول لقرار ما بشأن توزيع الميراث. أشارت إيلينا إلى ضرورة التحدث إلى خوان، أخوهما، ولكن مِرسِدِس كانت قد سبَقت بالاتصال به متوصلة معه إلى بعض اتفاقيات أساسية. قالت:

- فكرنا فى أنه إذا لم يكن لأحدٍ من الثلاثة مصلحة خاصة بشقة أمى فيجب علينا بيعها.

- حسنًا.

- أراك غريبة. أحدث شىء؟

- عاودتنى تلك الآلام، إننى تعبة.

أعطتها أختها بعض النصائح وتعهدت بالمجىء إلى مدريد فى نهاية الأسبوع القادم لتدخل مع أخويها شقة الوالدة بهدف تفريغها من محتوياتها قبل عرضها للبيع. كان يشتمل التقسيم _الذى بدا لإيلينا كتحصيل حاصل - على أثاث وأشياء ذلك البيت الذى كان مسكنهم جميعًا.

أصابتها فى تلك الليلة نوبة قولون ونهضت فى اليوم التالى منهكة. كان زوجها قد ذهب إلى العمل. تناولت فطورها فى المطبخ، ودخنت سيجارة محشوة وعادت للاضطجاع. كان الفراش باردًا، بشكل جعلها تقرر عدم تعرية قدمها. لم تستطع النوم على الرغم من التعب والتأثيرات المهدئة للحشيش؛ لأن تعاقب الصور - الخارج عن إرادتها - أخذ يتوافد على رأسها. كانت صورًا مجردة من فكر أو انعكاس ولكن كان بها شىء قادر على استحضار ضيق زائد عن الحد وكانت آثاره تميل إلى التمركز فى بطنها. فكرت فى أنها لو استطاعت التقيؤ ستكون أفضل، ولكنها لم تستطع النهوض، كانت تشعر بغثيان وخشيت أن تُزل قدمها وتسقط على الأرض. أخيرًا، عندما وصل الضيق إلى حد لا يطاق، تحاملت على نفسها ووضعت قدميها على الأرض. لاحظت أنها ينقصها الهواء وبدأت تتصبب عرقًا فى الوقت ذاته الذى أخذت فيه أعضاؤها فى التراخى. فقدت الخوف بعد لحظة، وفجأة فقدت الوعى وسقطت على جنبها فوق الفراش وقدماها بخارجه، على شعرة من ملامسة الأرض. كانت قد حصلت قبل أن يحدث ذلك على ثانية أو اثنتين من السعادة المطلقة. بدا لها أن الهاتف يرن ولكنها لم تكترث، فلقد كانت على وشك أن تغرق فى النسيان.

استيقظت بعد نصف ساعة، مقشعرة من البرد ولكنها استعادت نفس الغثيان السابق. تدثرت

بالبطانية ومفرش السرير وأشعلت سيجارة لترى إن كانت ستستطيع أن تتحملها، متحققة برضا من أنها تستسيغها بشكلٍ جيد. كان العرق قد برد وفكرت بمتعة فى حمام بماءٍ ساخن. ظل بطنها على نفس الحالة من السوء، ولٰكن أهدأ بعض الشىء. قالت لنفسها إنه ربما لم ينته القولون من تنظيف الأمعاء بعد.

استيقظت فى منتصف النهار ورتبت الشقة بعض الشىء. كان زوجها معتادًا على أن يتغدّى بالخارج والخادمة كانت تأتى مرتين فقط بالأسبوع. كان اليوم لديها خاليًا. قررت أن تخرج لتتنفس حيث ظلت تشعر بنقص الهواء. إلا أنها فقدت الرغبة فى الاستحمام وبينما كانت ترتدى ملابسها شعرت أنها قذرة. قبل خروجها لفّت سيجارة محشوة حتى إذا راق لها تدخينها فى الشارع.

كانت السماء قد توقفت عن الإمطار، ولكن السحب لم تتقشع. كان نهارًا مظلمًا ونظيفًا ويشجع على استنشاق الهواء الرطب. اختارت طريق "فرانسيسكو سيلبِلا" صدفةً، وتأكدت من أن ساقيها تعملان بفاعلية نسبية. توقفت بلا حماس أمام فترينة محلين أو ثلاثة وفجأة أحست بالجوع. فكّرت فى واحدة من أكلاتها المفضلة ولاحظت أن تذكُّر هذه الأكلات يثير فى داخلها نشاطًا مَعِديًا ما. فكرة الأكل أعطتها شيئًا من السعادة. دخلت إلى حانة ذات شكل خارجى جيد. جلست على كرسى بدون مسند عند

طاولة الحانة وطلبت طبقًا مشكلا وجِعّة. كانت تشعر بعطشٍ شديد، وعند الرشفة الأولى المليئة بالرغوة تخللتها رعشة لذّة. أمام الطاولة كانت ثمة مرآة أحاطتها علمًا بأنها لم تُزين وجهها، وأن شعرها المسترسل مهوش بعض الشيء. كل هذا، زيادة عليه الشعر الكائن فى ساقها اليسرى وحقيقة عدم استحمامها، رسم أمامها صورة جسد فى منتهى القذارة، ولكن الفكرة جعلتها تبتسم، فأناس الحانة لا يحيطون خبرًا بتلك التفاصيل، وهى أنيقة، مما لا يجعل أحدًا يشك فى نظافتها. كان مثل سرٍ بينها وبين المرآة. كانت الحانة مزوَّدة بنظام موسيقى يأتى صداه من العمق. فى النهاية أخذت أغنية للبيتلز(*) فى البدء، والتى أخذت تترجمها إيلينا فى عقلها. " تخيل نفسك داخل قارب فى نهر من أشجار اليوسفى وسماء من المربى. أحدهم يناديك، ترد ببطء... وورود من السيلوفان الأصفر والأخضر تطل على رأسك.. تظهر على الضفة سيارات أجرة من ورق الصحف تنتظرك لتقلك..."

جعلتها الأغنية فى مزاج حسن، وأعادت لها القهوة شيئًا من كمالها الجسدى الذى كانت قد نسيته. ولكن عندما خرجت إلى الشارع وراقبت المارة ونظرت فى إشارات المرور وتأملت عرقلة حركة المرور، شعرت من جديد أن الأمر عبارة عن حقيقة محكوم

(*) فرقة غنائية إنجليزية نالت شهرة واسعة في الستينيات، قتل مؤسسها في حادث غامض.

عليها بالإعدام. أشعلت السيجارة المحشوة ونزلت من شارع "ماريا دى مولينا" نحو شارع "لا كاستيانا". تجمع تأثير الحشيش فى الجبهة؛ تخيلت أنها عبارة عن جبهة من الزجاج حيث من خلالها كان من الممكن تأمل الكتلة الدماغية ذات درجات اللون الأخضر والأصفر التى كانت تتدرج بشكل غير إدراكى نحو البنى والأسود. أعادت فى ذهنها مقطعًا من الأغنية " تخيل نفسك فى قطار، فى محطة حُرّاسها من الصلصال ذوو رابطة عنق زجاجية، أحدهم يظهر فى شباك التذاكر..."، ولكن الكمال السابق كان قد لاحقه توعك تمركز فى الأعضاء الفارغة من جسدها، خاصة فى المعدة. بدأت تشعر بشىء من الغثيان عزته لعسر هضم. فكرت فى أنه إذا استطاعت التقيؤ أو تفريغ أمعائها فإنها ستستعيد حالتها السابقة، ولكنها لم تجد بالجوار أى مقهى. تفرعت إلى شارع جانبى ودخلت فى حضانة للأطفال؛ كانت البوابة مفتوحة ودخلت. مرت بشابين شكًا فى أنها أم لأحد الأطفال ولم يقولا لها شيئًا، وإن كانا قد راقباها بغرابة. أخيرًا عندما بدا لها أنها على وشك الإغماء وجدت نفسها عند بوابة العبور إلى الحمامات فدخلت بعجلة فى واحدٍ منهم. كانت قاعدة الحمام صغيرة وتفتقر إلى غطاء. جلست إيلينا ساندة ظهرها إلى الحائط وتحملت انخفاض الضغط دون أن تفقد وعيها. عندما شعرت بتحسن بعض الشىء، رفعت التنورة وخلعت غيارها الداخلى وسروالها القصير. "حصلتُ عليه"،

فكَّرت، "خلاص، حصلتُ عليه" . ولكن الأمعاء لم تكن مؤهلة للعمل، مما أدى إلى أن كرة الغثيان لم تهبط نحو المستقيم على رغم الجهود التى بذلتها إيلينا لطردها خارج جسدها. فكّرت فى التقيؤ، ولكنها ظنّت أنها قد تفقد الوعى إن غيرت وضعها. أثناء ذلك، بدأت مجموعة من الصور المتلاصقة فيما بينها فى الدوران فى ذهنها: الساق دون حلاقة، الشوارع الرطبة، عمود إشارة مكسور، وَزير من الصلصال، نهر من المربى به زوارق من الكرمل، جثة والدتها ملفوفة فى سيلوفان أصفر وأخضر...اكتسبت سرعة الصور فى الحال إيقاعًا مفرطًا تحملته إيلينا بأعين مفتوحة وأظافر مغروسة فى الأفخاذ. موجة حر كتلك الموجات التى اعتادت أن تسبق حالات إغمائها صعدت من البطن إلى الوجه حيث تحولت إلى عرق محلل. عندما كانت على وشك فقدان الوعى خفّت السرعة. فتحت إيلينا فمها لتستنشق أكبر كمية ممكنة من الهواء بينما كانت تقول فى نفسها : خلاص، ها قد انتهى، كان هذا الجنون وها قد انتهى.

على هذه الحالة سمعت صرخات طفولية فاستنتجت أن الأطفال قد خرجوا من الفصول. فعلاً، فى الحال أخذوا يضربون باب الحمام الذى كانت قد اتخذته إيلينا ملتحدًا. لم يكن الباب يصل حتى الأرض. سحبت ساقيها إلى أقصى ما تستطيع، وحبست أنفاسها بينما كانت تحاول تحديد ما إذا كان ما تمر به مشهد رعب أم ضحك. لكن لم يكن لديها

الوقت الكافى لتقرر لأن الجنون ـ مرتبطًا بسرعة الصور ـ عاد إلى رأسها. حبست أنفاسها وركّزت كل طاقتها فى منطقة البطن حيث بدا لها أن كرة الغثيان كائنة هناك، ولكن لم تستطع أن تجعلها تتقدم. عندما فتحت عينيها رأت رأس إحدى الفتيات مطلاً من أسفل عُقب الباب. نظرت كل منهما إلى الأخرى بضع ثوانٍ قبل أن تنسحب عيون الطفلة. سمعتها تصرخ فيما بعد: يوجد سيدة ذات وجه شاحب هناك بالداخل. حينها نهضت وفتحت الباب وحاولت الخروج ولكن سروالها القصير الملفوف عند كعوبها حال دون توازنها. بينما كانت تسقط وقبل لحظات من فقدانها الوعى، كانت فى منتهى السعادة لشعورها أنها تركت مسئولية عمل جسدها بين أيدى آخرين.

أفاقت فى التو غارقة فى عرقها. كان الجنون قد تراجع والغثيان قد اختفى أو ذاب فى الرشح الغارق فيه جبينها. قدمت نفسها، وطلبت العفو، وأكدت على أنه سوء هضم ولم تكن تعرف إلى أين تذهب...

قالوا:

ـ هذا لأنك أنيقة، لو لم يكن كذلك كنا قد أبلغنا الشرطة، فأشياء كثيرة تحدث...

أعطوها تفاحة صغيرة وطلبوا لها سيارة أجرة وصلت بعد خمس دقائق. أمطرت بالخارج من جديد، أو أن الرطوبة كان لها نفس تأثير المطر. شعرت إيلينا انها خفيفة وإلى حدٍ ما متفائلة كما اعتادت أن يحدث لها

بعد كل إغماءة. على كل حال، اضطجعت عند وصولها البيت وظلت نائمة حتى عاد إنريكى زوجها من العمل. سألها:

ـ ما بك؟

ـ تلك الأوجاع مرة أخرى.

ـ أصر إنريكى بشىء من الصبر:

ـ لِمَ لا تذهبين إلى الطبيب؟

ـ ردت إيلينا بنبرة هائجة:

ـ لقد ذهبت إلى كل الأطباء وقالوا لى إن ليس بى شىء.

قرر إنريكى ألا يصر، واكتفى بأن يعلمها أنه قد يمضى نهاية الأسبوع بالخارج لأسباب تتعلق بالعمل. سألته إيلينا :

ـ منذ متى وأنت تعمل فى نهايات الأسبوع؟

ـ الأمر يتعلق بمؤتمر لمستشارى المبيعات وتلك الأشياء دائمًا ما تتم فى أيام العطلات.

شكّت إيلينا فى أن الأمر يتعلق بشىء آخر، وفجأة جعلتها فكرة أن إنريكى قد يكون يخونها حانقة، ولكنها لم تقل شيئًا. ظلت مستيقظة جزءًا كبيرا من الليل ووضعت خطة تساعدها على النهوض من الفراش فى اليوم التالى. حيث كان اليوم هو يوم الجمعة، تعين عليها أن تتصرف بسرعة بحيث إنها بعد الإفطار ذهبت إلى أقرب مكتب بريد وتعاقدت

على شراء صندوق بريد. عادت إلى البيت وبعد أن أعطت الخادمة بعض التعليمات حبست نفسها فى غرفتها مع دليل التليفونات. بحثت بالصدفة عن وكالة للمحققين وبعد إعادة الحوار المتقن فى ذهنها طوال الليل اتصلت:

- صباح الخير. أريد أن أتحدث إلى المدير.

- رد عليها من الناحية الأخرى صوت رجالى:

- هأنذا.

كانت إيلينا على وشك أن تغلق السماعة حيث جملة " هأنذا" لم ترق لها؛ كما أن السماعة أخذها هو مباشرة وليست أمينة سر، مما جعلها تخشى أنها ربما تتعامل مع وكالة محدودة النفوذ. أخيرًا قررت أن تستطرد.

حسنًا، الموضوع يتعلق بتكليف حضرتك بتحقيقٍ حرجٍ بعض الشىء وبالتأكيد غير نمطى.

لماذا يكون غير نمطى؟

لأن حضرتك لا يجب أن تعرف من يكون الشخص الذى يكلفك بالتحقيق. أنا أمينة سر عميلك، وهو عَلَمٌ من أعلام المال والسياسة ويرغب فى أن يظل اسمه خارج نطاق ذلك الموضوع.

شرحت إيلينا جوانب التحقيق، وأعطت بيانات زوجها مضيفة أنه ربما يجب عليهم عمل تقرير مفصّل عن نشاط هذا الشخص خلال مدة نهاية الأسبوع

القادم. بدا على مدير الوكالة أنه يأخذ ملاحظات لكل شىء ولكن أصر على معرفة اسم العميل. كانت إيلينا حاسمة:

لقد قلت لسيادتك إن هذا غير ممكن. سنتواصل عبر صندوق البريد الذى قد أعلمتك به، سيتعين عليك إرسال التقارير إلى هناك. وفيما يتعلق بأتعابك ستكون مودعة فى رقم الحساب والبنك الذى ستخبرنى به.

سيكون من الضرورى وجود مقدم لإثبات حسن النوايا.

غداً سأودع فى ذاك الحساب ما يبدو لك مناسباً.

استطاعت التأمينات الاقتصادية إزالة الظنون عن نفس مدير الوكالة، الذى وعد بإرسال التقرير يوم الإثنين. شعرت إيلينا عندما وضعت السماعة أنها أدخلت فى حياتها عنصراً محفزاً مهماً مما ساعدها على أن تُنحى جانباً، فى أكثر منطقة غير مأهولة فى ذاكرتها، حادثة يوم أمس. على كل حال، قررت ألا تدخن الحشيش خارج المنزل مرة أخرى. نامت تلك الليلة جيداً، واستيقظت صباحاً مرتاحة إلى حدٍ ما. فى الثانية عشرة ظهراً، عندما خرجت لتنفذ عملية الإيداع الذى طلبته الوكالة لم تكن تشعر بأى توعك بعد، عدا التأثيرات الناتجة عن تكوم مفرط للغازات الذى قد حددت مكانه عند الاثنى عشر.

استيقظت إيلينا يوم الأحد من الفراش بطعم فم كريه وحرقان فى المعدة. أرجعته إلى تناول كمية كبيرة من العسل الليلة السابقة، خلال إحدى هجمات الجوع الناتجة عن تناول الحشيش. أعدت حمامًا وغمرت نفسها فيه بلا متعة وفكرت بتكاسل فى نزع شعر ساقها اليسرى، ولكنها كانت قد تواعدت مع خوان ومرسدس أخويها فى بيت والدتها فقالت فى نفسها إنها قد تصل متأخرة إذا قضت وقتًا كبيرًا فى التزين الشخصى. ارتدت بنطلونًا من الجينز وقميصًا قديمًا من الصوف وارتدت عليهما معطفًا مشمّعًا خاصًا بزوجها كان يعجبها بشكلٍ خاص. لم تكن تمطر، ولكن السماء ظلت غائمة وكان يظهر على واجهة العمارات بقع كبيرة من الرطوبة. قادت بغير تسرع، محاولة أن تؤخر ما سيحدث، ودخلت فى الحى من الخلف لتتخيل نفسها فى تلف الأرصفة التى قد كانت تشكل منظر صباها.

عندما وصلت إلى بيت أمها كان أخواها هناك فى انتظارها. كانت مرسدس تبكى فوق أريكة

الصالون وخوان يربت على رأسها بشكلٍ آلى. سألت إيلينا:

ـ ماذا حدث؟

أجاب خوان:

تأثرت عند دخولها الشقة.

كان المنزل مظلمًا، كاليوم. ترتيب الأشياء والأثاث مازال يستحضر وجود الأم، أو ذكراها. كانت ثمة كومة كبيرة من التراب على الأماكن المظلمة من الأثاث وعلى شاشة التليفزيون توحى بأن المنزل مهجور. قالت إيلينا:

ـ هنا رائحة هواء مكتوم.

أضافت أختها من بين نهنهاتها:

ـ إنها رائحة موت.

ـ والدتنا ماتت بالمستشفى.

ـ لا يهم، توجد رائحة موت.

اقتربت إيلينا من باب الشرفة وفتحته، ولكن لم تلاحظ أن الجو الداخلى للشقة قد تغير فيه أى شىء نتيجة لهذا، بل أكثر من هذا، بدا لها أن الجو الجنائزى للشوارع ما كان إلا انبثاقًا من الموت الرقيق الذى كان يُستنشق بداخل البيت. كانت قد أخذت فى الإمطار من جديد ولكن الماء ـ المنتشر والمشوش ـ كان يسقط فوق الأسقف كشاش كان يستعمل من قبل فوق جسدٍ محتضر.

ذهبت إيلينا إلى المطبخ وتأكدت من أنه كان ثمة طعام عفن، حفظته باشمئزاز فى كيس بلاستيكى. أحدهم كان قد تطوع بفصل المفتاح الكهربائى العام للنور عندما انتقلت أمها إلى المستشفى، ولكن لم ينظر إذا ما كان يوجد شىءٌ فى الثلاجة. فتحت شباك المطبخ أيضًا واستقر تيار هواءٍ رطبٍ مما سبب لها رعشة. عادت إلى الصالون. قالت:

ـ كان يوجد طعام فى الثلاجة.

ـ ردت أختها بنبرة توبيخ:

ـ أنا لو لم أكن أعيش فى برشلونة لكنت أتيت للتنظيف فى أى يوم.

تبادل خوان إيلينا نظرة تضامن، ولكن ظلا صامتين. كان الثلاثة جالسين فى شبه الدائرة التى يكونها المقعدان والأريكة أمام التليفزيون. تأملت إيلينا أختها، حيث كانت ترى منها جانب وجهها الأيمن فشعرت بانطباع بأنها تنظر إلى شىء قديم جدًا. فيما بعد مسحت بنظرتها أسطح الأثاث، غامق اللون ومنحرف الهيئة، كأن خلف عتمته يختبئ شكٍ ما. لاحظت حركة فى أمعائها، ولكن فكرة استخدام حمام تلك الشقة بدت لها مقززة. كانوا قد ذهبوا لإخلاء البيت، لتصنيف الأشياء ولكن ظلوا جالسين كما لو كانوا بانتظار قرار خارج عن إرادتهم.

فجأة أخذ خوان فى البكاء هو الآخر فاقتربت منه مرسِدس لكى تسرّى عنه أو لكى تزيد من

إحساسه بالهجر. تأملت إيلينا المشهد ببرود ورأت أن الموقف اعتيادى بما يكفى حتى لا تشارك فيه. فى نفس هذا الصالون والأثاث عينه وطقس مشابه، كان الثلاثة أطفالاً ومراهقين وشبابًا. كانت هى الأكبر وخوان الصغير، ولكن الآن يبدون وكأن الثلاثة لهم نفس العمر؛ فالنضج يزيل الفروق البسيطة والموت يلغى الاختلافات. تمامًا كما كنّا، فكّرت، متشربين ذلك الحنان الخفى الذى لم نجرؤ أبدًا على إظهاره، أو ربما أظهرناه، على الأقل إذا اعتبرنا أن الكره جزء من أجزاء الحب، وربما كان أكثرها فاعلية.

خرجت إلى الممر وأطلت على حجرة نوم والدتها. أضاءت النور؛ لأن الشيش كان مغلقًا. تأملت حجم الأشياء كما لو كانت بانتظار أن ينبع من ذلك التأمل فكرة ما، مفهوم ما، حُكْمٍ ما يلخّص معنى الحياة أو ربما اتجاهها، طريقها، فى حالة ما إذا كان ثمة طريق آخر لن يقودها إلى المقبرة، ولكن لم يحدث أى شىء، عدا حركة من الأمعاء أزاحت الغثيان بضعة سنتيمترات. اقتربت من الدولاب القديم ذى الوحدات الثلاث، والذى بدا وكأنه بطن البيت وفتحت الباب الأوسط؛ داخل الوحدة كان ذا ظلام خاص به، مختلف عن الظلمات الأخرى للحياة، وذا رائحة جوهرية قد ظلت كما هى على مر الأعوام. كان يبدو كبئر مياهه أصيبت بنوعٍ ما من العطب أو المرض.

فكرت إيلينا أنها إذا رمت حجارة بداخل الدولاب لن تسمع لها قرارًا عند ملامستها عمقه؛ كان الظلام

يبدو شديدًا، بيد أنها عندما مدت يدها لتلمس أحد الفساتين التى تقسم الظلام سمعت صوت شىء ما كان قد انقلب. نظرت نحو أرضية الدولاب فرأت شيئا، كانت زجاجة كونياك نصف فارغة. فكرت فى إخفائها لكى لا يراها أخواها ولكن سرعان ما تنبهت لوجود الكثير. كلها من الكونياك الرخيص، وأنه عاجلاً أم آجلاً سيكتشفونها، فتركتها حيثما كانت.

فوق المائدة كان ثمة كتب دينية ومسبحة من الفضة معلق فيها المسيح وهو معذّب بإفراط. فتحت درج هذه الوحدة الصغيرة فاكتشفت مجموعة من الكشاكيل ذات سُمك قليل، مترابطة ببعض الدبابيس. فتحت الأول، ولاحظت، وهى جالسة على حافة الفراش، خط والدتها ثم شرعت فى قراءة الصفحة الأولى:

أبدأ هذه الصفحات قبل قليل من إتمام عامى الثالث والأربعين، وأجهل ماذا سأسميها أو إلى أين ستقودنى. تعافيت تلك الأيام من التهاب شعبى، أثّر فىّ بعض الشىء، ونتائجه، كما أخشى، لم تنته بعد. لم أقل شيئًا لزوجى أو للطبيب، ولكنى ألاحظ بعضًا من الألم هنا، بجانب الرئة اليمنى، والتى لم تستطع الأدوية إزالته. أخشى أن تكون الجرثومة شيئًا لم يُعرف كنهه بعد ولا حتى يمكن مكافحته، وأتمنى أن تتطور ببطء حتى أتمكن من رؤية أولادى متزوجين والاستمتاع بعض الشىء بأحفادى، إن شاء الله أن يعطينى أحفادًا.

على كل حال، ثمة شيء طيفى فى حالات توعكى، أريد أن أقول إننى أشعر بالمرض كشبح يجتاح جسدى ويظهر بمزاج متقلب فى مكان أو فى آخر، حسب الساعة التى أستيقظ فيها. استيقظت هذا الفجر، على سبيل المثال، على وخز فى حلقى فى الجانب الأيسر. تناولت بعض حبوب عندى لالتهاب البلعوم ونمت. بيد أنه فى الصباح كان عندى نفس ذلك الوخز فى الرئة اليمنى. يا لها من حياة.

سمعت إيلينا صوتًا صادرًا من الصالون فأغلقت الكشكول. كانت مختنقة ولاهثة، كما لو كانت قد حضرت شيئًا مرعبًا أو خياليًا، ولكنه أساسى من أجل تخطيط مصيرها نفسه. بعدما تأكدت من أن أحدًا لا يقترب، أخذت الكشاكيل وخبأتها أسفل قميصها الصوف، مُلتصقة بجسدها عن طريق حزام البنطلون. رجعت بعدها إلى الصالة وتأكدت من أن أخويها فى حركة. أخذت حقيبتها التى كانت قد تركتها على أحد المقاعد، وحفظت الكشاكيل بها. خرجت بعدها إلى الشرفة حيث كانت قد أخذت تتصبب عرقا بشكل غير طبيعى، وظلت هناك حتى لاحظت برودة محفزة كانت قد استقرت فى المنطقة الأعلى من جسدها. عادت إلى الداخل، وساعدت أختها فى طى بعض البطاطين. دخلت بعدها إلى الحمام وأغلقت المزلاج. فكرت فى أنها إذا استطاعت التبرّز قد تشعر بتحسن، ولكنها لم تكن قادرة على الجلوس فوق قاعدة الحمام. فتحت الدولاب الصغير المعدنى الكائن فوق الحوض

فرأت أنه كان مليئًا بالأدوية، خاصةً أدوية خاصة بعلاج الجزع. كان الحمام يفتقر إلى وجود نافذة مما جعلها تعانى فى الحال من إحساس بضيق نفس أعادها إلى الممر. كان أخوها يفك السرير الذى قد كان لوالديه. سألته:

ـ هل ستأخذ السرير؟

ـ أجاب خوان بنبرة مراوغة:

ـ لم يعد يُصنع مثله.

بعد قليل عادوا ليلتقى ثلاثتهم فى الصالون، كانوا يبدون مثبطى الهمة، كما لو كانوا قد نووا العزم على مهمة شاقة. قالت مرسدس:

أعتقد أنه إذا استمررنا على هذا المنوال لن ننتهى أبدًا، أقترح أن كل واحد يأخذ ما يريد، وإذا كان هناك اثنان يريدان نفس الشىء فليقترعا، ثم نرسل فى استدعاء جامع الخرق ليأخذ كل ما تبقى.

النبرة التى كانت قد استخدمتها كانت ناتجة عن قسوة لا تُتخيل، لكن مِرسِدِس كانت دائمًا على هذا النحو عندما كانت تُظْهِر على السطح فضائلها العملية. غير أن إيلينا شعرت لأول مرة بدفعة كانت لتقودها إلى البكاء لو أنها لم تفعل ثلاث أو أربع حركات عنيفة بعضلات وجهها. آلمها أن كل ما كان هناك ـمتضمنًا شبابها ـفقط كان لا يستطيع أن يثير اهتمام إلا جامع خرق. قالت إيلينا :

حسنًا، بوسعكما أن تتقاسما كل شىء بينك وخوان. أنا لا أريد شيئًا، وأفضل ألا أطأ بقدمى تلك الشقة مرة أخرى.

رمقتها مرسدس بنظرة جانبية، ولكن لم تفعل شيئًا ألبتة لإيقافها. صاحبها أخوها حتى الباب وربت على وجهها قبل أن ترحل. اجتهدت إيلينا كثيرًا فى الشارع لتتذكر أين ركنت سيارتها. أخيرًا، وجدتها ودخلت فيها بشىء من العجلة، كما لو كانت تريد الجلوس لتخفف عن نفسها ألمًا ما. كان شعرها مبللاً بسبب سحابة المطر الرقيقة التى كانت تغلف المدينة، وكانت تبدو مختنقة على الرغم من أن الحرارة لم تكن مرتفعة. أسندت يديها على عجلة القيادة وتنفست بعمق ثلاث مرات لوقف حالة الضيق التى انتابتها. بعدها، وهى لم تدر محرك السيارة بعد، أخرجت واحدًا من الكشاكيل من الحقيبة وبحثت عن صفحة ما بالحظ. قرأت:

البعض يفتح عينيه قبل الاستيقاظ، كما لو كان قد استيقظ فزعًا. ولكن أنا لا، أولاً أفكر من أنا، أعرّف نفسى كما يقال، ثم أفتح أجفانى عارفة تمام المعرفة ما الذى ستراه عيونى. اليوم عند الاستيقاظ لم أشعر بأى أعراض، بل على العكس، بدا لى أننى أملك قوة جسدية غير مفهومة. بقيت وعينان مغمضتان لفترة طويلة، مارة بأحشائى، التى بدت وكأنها غير موجودة من صمتها الذى كانت فيه. فكرت فى أنه ربما لم أكن أنا، وخفت أن أرفع جفونى خشية

أن أرى دولابًا مختلفًا عن دولابى الكائن أمام الفراش، ولكن فى النهاية لا يتغير المرء أبدًا، حيث إننى عند تحاملى على نفسى شعرت بألم ما فى جانبى الأيمن. وظللت طوال اليوم فى توعك غريب حيث لم أعرف فى أى عضو كان. زوجى أصابه برد وسيصيبنا جميعًا بالعدوى.

أغلقت إيلينا الكشكول وتأملت الشارع. كان المارة الحذرون معهم مظلات، إلا أن الجميع لا يحملها مفتوحة. كانت تلهث قليلاً، كما لو كانت قد تعافت من مجهود عضلى. وجهت يدها اليمنى إلى مفتاح موتور السيارة ولكنها سحبتها فى التو. أخذت الكشكول مرة أخرى وفتحته على آخر صفحة وقرأت:

فى الحقيقة، الجسد مثله مثل حى من الأحياء: لديه مركزه التجارى، شوارعه الرئيسية، وضاحية غير منتظمة ينمو فيها أو يموت. إننى لست من هنا، لست من تلك المدينة التى يطلقون عليها مدريد، عاصمة البلد. جئت لأقع فى ذلك المكان عن طريق صدف الحياة، وشيئًا فشيئًا تخليت عن أن أكون من حيث كنت، حيث كان مكانًا ذا بحر وشمس وفيرة، لا أريد ذكر اسم المكان لأنه على مر وجودى، لا أعرف منذ متى، لم أعد من هناك. الموضوع أننى وصلت إلى ذلك الحى المكسور ذى الهيئة الشبيهة لهيئة جسدى، ومرض لا يختلف عن مرضى، لأن كل يوم عند اجتيازه، ترى الألم فى مكان مختلف. أظافر قدمى هن ضاحية حيى. لذلك فهى مكسورة ومشوهة.

وكمويى هى الأخرى منطقة ضعيفة جدًا من هذا الحى ذى اللحم الذى هو أنا، حيث تعشش كائنات هربت من حرب ما، دمار ما، جوع ما. وذراعىّ بيوت مصدّعة وعيونى لمبات غاز مكسورة. رقبتى تبدو كحارة توصل بين مناطق مقفرة. شعرى هو الجزء النباتى من هذه المجموعة، وها قد حان الوقت لصبغه لتخبئة خرابه. وفى نهاية الأمر، عندى أيضًا زبّال لا أريد حتى الكلام عنه، ولكن، كما فى كل الأحياء المدمَّرة، القذارة تقترب من المركز وسيجد المرء قشر البرتقال فى كل مكان. لا يمكن حتى السير فى جسدى من شدة قذارته، والبلدية لا تفعل أى شىء إزاء تصليحه.

أغلقت إيلينا الكشكول بعنف واضح وحفظته فى الحقيبة. الكحول، قالت، أو الأدوية. بعدها، كما لو كانت تتناول قرارًا خطيرًا، أدارت السيارة وهربت من الحى من جانبه الأقل قذارة.

وصلت إلى بيتها فى حالة من الهياج غير مرغوب فيها. استراحت فى الصالون دون أن تخلع المعطف عنها وراقبت الكشاكيل؛ كانت خمسة، إلا أنها كانت مرقمة من واحد إلى ستة. تأكدت من نقصان رقم ثلاثة. خافت ألا تكون قد رأته، أزعجتها فكرة إمكانية أن يجده إخوتها. أخذت الكشكول رقم أربعة وقرأت السطور الأولى:

خرّبت الكشكول السابق لأننى كنت أتكلم فيه عن أولادى كثيرًا. نحن لا نعرف ماذا نقول عن الأولاد؛ لأنهم طيبون وسيئون فى الوقت نفسه، وتأكدت أن

المرء فقط يحبهم عندما يتوافقون مع الفكرة التى كوّنها عنهم. فضلاً عن أن الأولاد جزء منتزع عن جسدك وهذا _حتى لو ألفناه - يبدو غريبًا جدًا. الأولاد كما لو أنهم من حى آخر، على الرغم من أنهم يقطنون هنا فى هذا الحى. لقد عانيت كثيرًا مع الثلاثة لأنجبهم، وبقين معاناة عواقب تلم الولادات. الآن عندى كتاب لطبيب يوغسلافى يتكلم فيه بترتيب أبجدى عن الأمراض وعلاجها. لذلك أعرف أن رحمى متهدل بسبب نوع من التراخى فى الأربطة المعلق بها. هذا يجعله يسقط فوق المهبل جارفًا المثانة فى سقوطه. ولذلك عند الكح أو الضحك بقوة يهرب منى غير إرادى شيئًا من البول، ولذلك أيضًا أعيش مع الإحساس أن هناك شيئًا داخلى قد غيَّر موضعه. طبقًا للدكتور اليوغسلافى ذلك المرض يدعى هبوطا مهبليا. أصعب ولادة كانت لإيلينا ، وهى أكثر من يضايقنى. زوجى يقول إننا نتشاجر كثيرًا لأننا متشابهان فى الشخصية. ولكن أنا أقول إن هذه اليوميات، أو مهما تكن، ليست للحديث عن الأولاد. فأنا أحب أولادى وأعتنى بهم، ولكن كموضوع للكلام أفضل الحديث عن البنكرياس.

أغلقت إيلينا الكشكول. كانت تبدو مندهشة وحيرانة، كما لو كانت لم تقرر بعد إذا كان ذلك الاكتشاف يعتبر كنزًا ما أم دنسًا ما. على كل حال، كان يرتبط بشىء متصل بوجودها بشكل كبير، كما لو أن خلف خط أمها المسطور أو خلف المحادثات التى

يبدو أنها أجرتها مع أحشائها كان يختبئ تحذير لا يستطيع أحد سواها فهمه وكان يبدو أنه يشير إلى مستقبلها.

أكلت سلطة فواكه على أمل أن هذا النظام يساعدها على تنظيف الأمعاء حيث بدا لها أن ثمة شيئًا صلبًا بها يغير مكانه على هواه، وكان يرفض أن يخرج من جسدها. دخنت فيما بعد سيجارة محشوة ونامت. كان لديها، قبل النوم، حلم يقظة: كانت تتمشى على ضفة شاطئ مهجور، وفجأة، توجهت إليها امرأة لم تكن ذات وجود ملحوظ، وكانت تخترقها متسربة من خلال جسدها، مثلما يخترق ملاكٌ حاجزًا ما. كانت المرأة مستمرة بالسير واجتازت صخرة ما. استلقت فيما بعد على الرمل، بوضعية من يأخذ حمام شمس، وكانت تختفى شيئًا فشيئًا، تتشربها أرض الشاطئ، مثل مياه الضفة. اقتربت إيلينا من مكان الحدث. ولكن فى تلك اللحظة عانت أمعاؤها من اضطرابٍ ما، وظنت أنها ستفقد الوعى. عندئذٍ أخرجت قدمها اليمنى من الفراش ووضعتها على الأرض، كما كانت قد سمعت أنه هكذا يفعل بعض السكارى لكى لا يفقدوا وعيهم تمامًا. ملامسة الأرض الباردة خففت من حدة التوعك، ونامت بعد قليل.

أيقظها جرس الباب فى السادسة والنصف. نهضت وهى تتماثل للسقوط، وارتدت الروب وسارت عبر المنزل محاولة أن تفيق نفسها من الملحقات المظلمة التى كان قد ثبتها الحلم على وجهها وباقى جسدها. كان أخوها. كان يبدو عرقان وسعيدًا. قال:

ـ انظرى ماذا أحضرت لك.

كان بجانبه مقعد قديم بمساند، ولكنه صلب منجد من الجلد وساعة بندولية لها أبعاد تابوت طفل. أضاف:

ـ أرهقنى رفعه كله من السيارة إلى هنا، ولكن لا يمكن أن تظلى بلا شىء.

المقعد كان لأمها وكان عبارة عن شىء قيم ومألوف عندها بشكل غريب. فى وقت سابق كان هو المكان المفضل لإيلينا ، والذى كانت تتشاجر عليه مع والدتها لمشاهدة التليفزيون أو القراءة. أما بالنسبة للساعة، فلقد كانت للعائلة منذ زمن لا يمكن تذكره وكانت قيمتها فى أنها تعمل على الرغم من قدمها. ردت إيلينا بملامح عرفان تنفى تأكيدها:

ـ لقد قلت لكم إننى لا أريد شيئًا.

تولى أخوها تعليق الساعة فى مكان مناسب فى الصالون ثم، مغيرًا مكان وحدة أثاث أخرى، وضع المقعد أسفل الساعة، لكى يحفظ لكلا الشيئين علاقة مشابهة لما كانا عليها فى منزل والدتهم. سألها خوان بينما كان يتأمل تأثير عمله:

ـ وماذا عن زوجك؟

ـ كان عنده مؤتمر لمستشارى المبيعات، أو شىء مثل ذلك ولن يعود قبل الغد.

ـ وهل كل شىء على ما يرام؟

ـ سأعد لك قهوة.

ظل أخـوهـا بـعض الـوقت فى المـنـزل، ولـكن محاولات كليهما فى التواصل باءت بالفشل. كان الأمر كما لو أنهما منذ زمنٍ بعيد كانا ينتميان إلى نفس الوطن، ولكن الحياة شتّتتهما مجبرة إياهما على اكتساب ملامح وعادات أو تصرفات غريبة حوّلتهما إلى آخرين دون أن يصلا بذلك إلى فقدان الذاكرة لما كانا عليه. ولكن تلك الذاكرة ليس لها فائدة أخرى سوى أن تغذى ضمير الفقدان والتأكيد على استحالة استعادة عادات الوطن الأول، حيث كانا يملكان سمات قادرة على استحضار عالم خاص، أرض مشتركة كان التبادل فيها مازال ممكنًا.

لم تتم إيلينا جيدًا فى مساء يوم الأحد. فأجراس الساعة ذات البندول والتى تدق كل ربع ونصف وتمام الساعة انتزعتها بانتظام من حلم سطحى وهش كالزجاج. كانت تستحضر تلك الأصوات ليالى أخرى من الوطن الأول، ليالى من الحمى، ومن الألم، ومن الاضطراب العصبى، ومن السهر، خلاصة القول، الوعى بالوقت المستغرَق قد كان يشار إليه عن طريق تلك الأجراس التى حينئذٍ، وحاليًا، كانت تعبر باب الصالون، وتجتاز الممر بنفس الإيقاع، وكانت تدخل إلى غرفة نوم الأرق لتذكرها، بدقة لافتة كيلومترية ما فى الطريق، المسافة التى تحتاجها لتصل إلى النهار.

فى حوالى الثالثة فجرًا أخذت قرارها بإيقاف البندول، وعلى أساس هذه النية غادرت حجرة نومها. وصلت حتى الباب الذى يربط بين الممر والصالون، ولكن لم تجرؤ على فتحه لخوفها. عادت إلى حجرة النوم، جلست على حافة الفراش وقدماها حافيتان فوق الأرض، وأخذت تحلل خوفها بسرعة. اعتقدت أنها بعملية إيقاف البندول كانت توقف شيئًا آخر، من

المحتمل أن يكون حياتها هى أو وجود العائلة. تذكرت حكاية شاعر مشهور كان قد أمر أن يواروه التراب وهو يرتدى الساعة، مع لف الزنبرك على أقصى حد، ليكمل أربعًا وعشرين ساعة أخرى طبقًا لمعايير الوقت بالنسبة للأحياء. من الممكن أن أمها، التى كانت تعشق تلك الأجراس، لأنها كانت تشعرها بالصحبة، كانت قد جهزت كل شىء من العالم الآخر لكى ترث إيلينا الوقت، قياس الوقت، كمن يرث لهبًا يجب أن يطعمه للأبد خوفًا من خطر لعنة ما. بدت لها المسئولية مفرطة، لكن كان لديها منطق يعمل مثل دقة التروس، على الأقل فى تلك الساعات من الليل. هدأت على أساس فكرة أن عند الإصباح سيتكسر ذلك المنطق إلى قطع مثلما تتكسر المخاوف الليلية مع أنوار الصباح. كانت ستوقف الساعة وكانت ستختصر تلك الحكاية إلى مجرد كابوس.

قررت أن تلف سيجارة لتستدعى النوم، ولكن تنبهت أنه لم يكن فى متناول يدها الورق الذى تلف فيه السجائر، كانت قد نسيته فى مكانٍ ما فى الصالون. تحركت من جديد ومنعها الخوف مرة أخرى من فتح ذلك الباب. شعرت ببرودة فى قدميها وعادت إلى البحث عن خفين. أضاءت فيما بعد أكبر عدد ممكن من مصابيح النور وجدته فى متناول يدها. اقتربت من حد الرعب وأدارت المقبض بحركة تنم على انتظار أن تجد مقاومةً ما آتية من الجانب الآخر. فُتح المقبض دون صعوبات. دفعت الباب،

وظهر لنظرها الأبعاد المظلمة للصالون. لإضاءة أنوار ذلك المكان، حسب مكان مفاتيح الكهرباء، كان يجب أن تعبر الصالون. ترددت إيلينا ، وشعرت بالخوف يدمر من جديد منطقة الأمعاء بجسدها . أدركت حينئذ ما الذى كانت تخشاه بشدة، كان أن ترى والدتها جالسة على المقعد، أسفل دقات ساعة البندول، الذى عند تشغيله ذلك الأحد، كان قد استعاد نظامه القديم: الانسجام القديم، الاتحاد العائلى اللذان كانا يستحضرهما المقعد والساعة، نظام لعبت فيه أمها دور الرابط والاتحاد . فاعل وفعل ومفعول به، صرخت عند عبورها الصالون فى حركة هلع. أضاءت النور وتأملت المقعد الخالى، ولكنه كان مسكونًا بشكل غريب، وفوقه كانت الساعة تحسب الوقت الذى كان يعنى إيلينا ولا يعنيها فى الوقت نفسه.

كانت للسيجارة الملفوفة الفضل فى إفاقتها أكثر. دخنتها كلها على المقعد المنجد من الجلد، متخيلة أنها كانت تغتصب بذلك مكانًا لم تكن مستعدة أن تكون أسيرته. عادت إلى حجرة النوم دون أن تطفئ الأنوار، وعندما علمت أنها لن تتمكن من النوم تناولت من الكومودينو مذكرات أمها، وحاولت أن تخمن فى أى تاريخ كانت تلك الحلقات المختلفة، ولكن فى أى من الكشاكيل وفى أى من صفحاته لم تظهر معلومات مؤرخة، عدا تلك التى أشارت لها فى البداية:

أبدأ هذه الصفحات قبل قليل من إتمام عامى الثالث والأربعين وأجهل ماذا سأسميها أو إلى أين ستقودنى.

عملت إيلينا بعض الحسابات لتحدد مكانها خلال تلك الكتابة، ولكنها تركتها فى الحال عندما تنبهت أنه كان يوجد بعض المصادفات غير الواضحة. فكرت أيضًا فى قراءة الصفحات الأخيرة من آخر كشكول، ولكن قررت أنها قد تفعل ذلك على ضوء الصباح. أخيرًا، فتحت أحد الكشاكيل عشوائيًا وقرأت ما قد بدا كحلقة ما:

أتذكر أننى منذ أن كنت صغيرة شككت فى قدرة الإنسان للوصول إلى الحقيقة. وهذا يرجع إلى أننى كنت أتبوَّل على نفسى حتى سن كبيرة (حتى عمر الخمس سنين أو ما يزيد) ولذلك فإن أمى، والتى كانت امرأة طيبة ولكنها بسيطة شيئًا ما، وبنصيحة ربما تكون من طبيبٍ ما، كانت تشرح لى أن البول يجب أن يذهب لقاعدة الحمام ليتنزه ويشم الهواء بعض الشىء ولكنه يعود فيما بعد إلى جسدى، والدليل على ذلك أنه بعد ساعات قليلة كان يعاودنى الشعور بالتبول. كان يبدو لى ذلك غباء لأننى أعلم عن خبرة أن ما يذهب فى قاعدة الحمام لا يعود مطلقًا، ولإثبات ذلك ألقيت هناك خاتمًا من الذهب كانت تقدِّره كثيرًا. بعد أيام قليلة بدأتْ فى البحث عنه كالمجنونة، فقلتُ لها ألا تقلق، وأننى قد رميته فى قاعدة الحمام وبناءً على ذلك لن يتأخر فى العودة. ضربتنى علقة ساخنة.

ومع ذلك، فعلى الرغم من أننى لم أكن أصدق تلك الحكاية ـ حيث إن حقيقة أننا نتبول عدة مرات

فى اليوم جعلتنى أشك فى صحتها _كان البول من الممكن أن يذهب مع مياه قاعدة الحمام ويعود إلى جسمى بطرق غامضة. وحتى الآن وهأنا أرملة عجوز وأولادى كلهم خارج المنزل، عندما أذهب لأتبول أتخيل أن هذا السائل الذى أخرجه من جسمى هو نفسه الذى أخرجته بعد ولادتى بقليل، سائل على مر كل تلك الأعوام تحرك بداخل دائرة غامضة متصلة بمثانتى كدوائر التفكير الإلحاحية؛ لأن إلحاحات الفكر يبدو أنها تذهب، ولكنها دائمًا ما ترجع إلى المخ بعد أن تجتاز ماسورة ما نسميها النسيان. على كل حال، كما أقول، على الرغم من أن تلك الحكاية مازالت تمتعنى، وأفكر بها كل مرة أجلس فيها على قاعدة الحمام، سببت لى ألمًا أكثر من أى ألم سببه لى شىء آخر، من حيث إنها أشعرتنى بعدم الثقة فى الناس، الأمر الذى لم أشف منه بعد. لذلك، على الرغم من أننى ذات طبع متدين، لا أستطيع أن أصدق غموض الثالوث. أعتقد أن هذا يحدث أيضًا للبروتستانت.

ثمة حكاية أخرى رووها لى عندما كنت صغيرة وأعجبتنى كثيرًا ومازلت أؤمن بها، على الرغم من أننى لم أقل لأحد. عبارة عن الآتى: طبقًا لما تقوله أمى، كلنا لدينا فى سكان الجهة المُقَابلة من الكرة الأرضية مخلوق يشبهنا تمامًا، ودائمًا ما يشغل فى الكرة الأرضية مكانًا ما قطريًا معاكسًا لنا (لو لم يكن كذلك لما كان من سكان الجهة المقابلة من الكرة

الأرضية). كانت تحكى لى أمى أن هذا المخلوق يمشى وينام ويتألم فى الوقت نفسه لأنه قريننا، دائمًا يفكر فى مثل ما نفكر فيه وفى الوقت نفسه على ما يبدو أنه فى أوقات بعيدة سافر بعض المغامرين للبحث عن قرينهم، ولكنهم لم يتمكنوا من رؤيته أبدًا، لأن القرين كان يغير مكانه فى الوقت نفسه مثلهم لكى لا يفقد وضعه المتجانس فى الكرة الأرضية، ولكن أيضًا لأن القرين كانت لديه نفس الفكرة وسافر للبحث عن الآخر فى الوقت نفسه. جعلتنى تلك الحكاية أشعر بالصحبة فى طفولتى، فعندما كنت أشعر بالخوف فى الليل كنت أفكر فى قرينتى التى تفكر فى نفس الشىء بالنسبة لى وكان لدى الانطباع بأننا نتبادل مراسلة التشجيع من مكانٍ قصى إلى آخر فى الأرض. أحيانًا، فى قسوة، كنت أشك بإبرة إصبعًا ما لى لمضايقتها، فهى أيضًا كانت تفعل أشياء سيئة، مثلاً فى يوم ما مُزِّقَ لى ثوب جديد لأننى لم أنتبه جيدًا إلى وجود بعض الأسلاك، وقد كلفنى ذلك أن أبقى معاقبة خمسة أيام دون خروج. كنت أدعو قرينتى فى بداية الأمر فلوريتا ولكن فيما بعد بدا لى اسمًا متكلفًا فبدأت فى تسميتها إيلينا (لا أعرف ماذا كانت لتسمينى هى). لذلك أطلقت نفس الاسم على ابنتى الكبرى، والتى لم تتسم بها امرأة من قبل فى العائلة. أتذكر أن زوجى ووالدتى وكل العالم سألنى عن سبب ذلك القرار ولكنى لم أعترف أبدًا لأحد أنه كان اسم قرينتى.

في بعض الأمسيات عندما أشعر أنني أشرب كونياك أكثر من المفروض، أفكر أنه ربما يكون شيء ما من قرينتي، من إيلينا ، التي شربت الخمر لعدم قدرتها على مواجهة اللحظات الصعبة في الحياة، كتلك الوحدة التي كان من نصيبنا أن نحياها ـ نحن الاثنين ـ في العجز. يؤلمني أنها تدمر نفسها، على الرغم من أنها في واحدة من تلك اللحظات ستنتحر وستريحني أنا أيضًا.

كانت إيلينا قد قرأت السطور الأخيرة لاهثة. أغلقت الكشكول وحفظته مع الآخرين في درج الكومودينو. نهضت بعدها وذهبت إلى الحمام وحاولت التقيؤ بلا جدوى. اعتقدت أنها لو استطاعت التقيؤ سينتهي الغثيان. كانت شاحبة. كانت تعبر الممر من أقصاه إلى أقصاه، فالسير أحيانًا يخفف من تأثيرات الحشيش. قررت ألا تعود للتدخين، فالسجائر الملفوفة مؤخرًا كانت تسبب لها تأثيرًا غريبًا، شريرًا يمسُّ أوجه الحياة، حياتها، حياة الذين لم تكن تدري عن أخبارهم شيئًا حتى تلك اللحظة، أولئك الذين بدءوا ينبثقون بقوة في الأيام الأخيرة من مرض أمها، لكن بصفة خاصة منذ لحظة وفاتها. عاودها الإحساس بالعرق الذي استهل حالة الإنهاك التامة، السقوط، وجرت حتى نافذة غرفة النوم. فتحتها وأخرجت رأسها. الهواء المنعش والمطر منحاها القوة. توقف العرق ونامت في الفراش بشعرها المبلول. حلمت أنها صغيرة وأنها كانت تلعب على

الشاطئ، قريبًا جدًا من أمها وتصنع حُفَرًا فى الرمال. فى واحدة من تلك الحفر وجدت عملة ككنز ما. أخذتها بإعجاب، وحيث إنها كانت تعرف أنها داخل حلم ما، كانت تضغط بشدة على كفها الأيمن للتأكد من أن صلابة العملة كانت شديدة، وأنه كنتيجة لذلك، لم تكن لتختفى إذا واظبت على الحفاظ على قبضة يدها مغلقة حتى الاستيقاظ.

أيقظها الهاتف. كان يوم الإثنين نهارًا. كانت أظافرها مغروسة فى بطن كفها، ولكن لم يكن ثمة شىء بها. رفعت السماعة. كان زوجها على الخط الآخر، فقال:

- أنا فى المكتب.

سألته مندهشة:

- متى وصلت؟

- هذا الصباح مبكرًا. لم أمر بالمنزل لأننا لدينا عمل كثير هنا.

نظرت إيلينا إلى الساعة، كانت الثالثة عصرًا. أخيرًا نامت ساعات طويلة. عندما ودعت زوجها استحضرت الحلم وتذكرت أنه كان يشير إلى جزء من طفولتها. فى الواقع، فى تلك السنين البعيدة، كانت فى إجازة مع والديها وحلمت نفس الحلم. فى اليوم التالى، على الشاطئ، صنعت عدة حفر وفى واحدة منها وجدت عملة. ذلك الجزء الذى أكمَل تحقيق حلم ما، كان قد حدد حياتها، فعلى العكس من إخوتها،

دائما ما اقتنعت أن تحقيق رغبة ما، أية رغبة، كان ممكنًا.

كان اليوم مشرقًا، فى هذه الأثناء كانت الشمس تدخل من شرفة الصالون مختصرةً الأثاث والأشياء إلى وظيفتها الأصلية. راقبت إيلينا ، تحت ذلك الضوء، المقعد والساعة ذات البندول وابتسمت، دون أن تفرط فى ذلك، عند تذكر أحداث الليلة. لم توقف الحركة الملحة للبندول لنفس السبب الذى جعلها لم تنزع شعر ساقها اليسرى بعد الاستحمام، فى الحقيقة، كانت اليمنى أيضًا تحتاج إلى تنظيف، ولكن قررت أنها قد تقوم به فى وقت لاحق.

كانت تشعر أنها أحسن بالنسبة لآلامها الاعتيادية، وعدلت عن وعدها الذى كانت قد قطعته أثناء الفجر فيما يتعلق بالحشيش. كانت ستدخن أقل وبالطبع لن تدخن خارج المنزل. كانت تعرف أن الحشيش، فى الآونة الأخيرة، كان يضعها على حافة شىء غير مرغوب فيه، ولكن فكرت أنه كان عبارة عن شىء مؤقت. ممكن أن يكون مرتبطًا بالموت الحديث لأمها وسيقل مع الوقت كما قلت هواجس سابقة. عند هذا الحد، تذكرت تلك الجملة من مذكرات أمها التى تؤكد فيها أن الهواجس تعود دائمًا، فشعرت بألم خاطف قاومته بإصرار وفاعلية.

ذهبت مساءً إلى مكتب البريد، وتأكدت بسعادة مشوبة بخبث من وجود ظرف فى الصندوق الذى تعاقدت عليه يوم الجمعة الفائتة. أخذته وسارت به

فى يدها على غير هدى فى الشوارع بحثًا دائمًا عن رصيف تغمره الشمس. على هذا الحال وصلت إلى شارع "كلارا دل راى". حيث دخلت إلى مقهى كانت زبونة دائمة فيه. طلبت شايًا وفتحت المظروف. كان التقرير مكتوبًا على ماكينة الكتابة وملحق معه صورة التُقطت بكاميرا بولارويد(*)، حيث كان فيها زوجها يتمشى على الشاطئ يده فى يد امرأة شابة، على الرغم من أن الصورة مأخوذة من مسافة بعيدة، إلا أن إيلينا تعرفت على المرأة فقد كانت أمينة سر إنريكى. ابتسمت بتعالٍ مندهشة من أن تلك الصورة قد أعطتها شعورًا بالراحة أكثر من أن أغضبتها. فحكايات النميمة تشعرها بتحسن، فتلك الحكايات تضع فى العالم نظامًا ما، كانت تشعر أنها غريبة عنه، ولكنه فى الوقت نفسه يفيدها كنقطة صلة. بعد أن تأملت الصورة لبضع ثوانٍ، قررت أن تقرأ التقرير:

الشخص هدف التحقيق بدأت مراقبته من قبل مجموعة عمل هذه الوكالة بداية من منتصف نهار الجمعة يوم ٢٦ على الرغم من أن الإيداع المحدد لتغطية المقدم لم يكن قد أودع حتى نهار السبت يوم ٢٧ . المسئول عن هذه الوكالة وضع فى اعتباره أن البنوك لا تفتح مساءً، الأمر الذى بلا شك حال موكلنا دون تنفيذ عملية الإيداع فورًا بعد التعاقد معنا، عن طريق الهاتف، لتقديم خدماتنا.

(*) نوع من الكاميرات يلتقط الصور ويحمضها فى الحال.

في الساعة السادسة مساءً من اليوم المشار إليه، ترك الفاعل مكاتب شركة استشارات كائنة فى ملتقى شارعى "إيسلاس فيليبيناس" و"خوليو كاسارس"، حيث يفترض أنه يعمل، وتوجه بسيارته إلى مطار "باراخاس". بعد أن ترك السيارة فى موقف سيارات المطار المذكور، توجه إلى مكتب تسجيل الحقائب فى الصالات الوطنية، حيث التقى مع امرأة فى السابعة أو الثامنة والعشرين. سمراء، وصغيرة الحجم، شعرها طويل، ويبدو أنه قد اتفق معها من قبل على هذا اللقاء. تصافحا بقبلة تنم على وجود علاقة حميمة أكثر منها عائلية، وإن كانت علاقة متقطعة، وأخذا طائرة الثامنة والنصف باتجاه مدريد ـ أليكانتى. كانت الطائرة فى البداية مكتملة العدد ولكن المحقق تحمل قائمة الانتظار مسافرًا فى نهاية الأمر فى آخر لحظة.

خلال الرحلة القصيرة للمكان المشار إليه، الفاعل هدف التحقيق وصاحبته، بعد أن تأكدا من أنه ليس ثمة أشخاص معروفون فى المقاعد القريبة، ظلا على حالة من الوله لم تتوقف حتى هبطت الطائرة على الأرض. أول ما خطت أقدامهما أرض أليكانتى، استأجرا سيارة متجهين بها إلى فندق واقع على الشاطئ، على بعد ٢٠ كيلو مترًا من شمال المدينة حيث باتا ليالى الجمعة والسبت والأحد، وفى واحدة من غرف الفندق ـ رقم ٣٢٤ قضيا معظم الوقت، فقد اعتادا فقط على الخروج عند المساء للتمشية على الشاطئ، معتزلين بعدها فى غرفتهما حيث اعتادا

على تناول العشاء والغداء وكذلك الإفطار. كان شائعًا خلال تلك التمشيات أن يلف الفاعل هدف التحقيق سيجارة، نعتقد أنها سيجارة حشيش وكان يدخنها وحده. لاحظنا أن صاحبته على الرغم من إلحاحات الفاعل، لم ترد أن تتناول مخدرات فى أية لحظة من التى كان يعرضها عليها. فى صباح الأحد ولسبب ما، قضى الفاعل بعض الوقت وحده فى قاعة استقبال الفندق. ساعة تقريبًا. كان يقرأ فيها كتابًا حفظه فى جيب البزة عند نزولها من الغرفة. كان يبدوان مستعدين للذهاب لمكانٍ ما ولكنهما تشاجرا فى الشارع وعادا إلى الفندق منعزلين فى الغرفة حتى الغروب. لم يكن ممكنًا فهم محتوى الشجار، فالعجلة التى كانت عليها تلك المتابعة منعت المتحرى من وضع ميكروفونات توجيهية ووسائل أخرى ذات تقنية عالية، التى على الرغم من أنها ستزيد تكاليف ذلك البحث، إلا أنها ستسمح بتوضيح تقاريرنا بشكلٍ أفضل. على أى حال، طبقًا لخبرة المحقق، لا شك فى أنها كانت تتعلق بمناقشة عاطفية عن مواقف للخيانة الزوجية بوجهيها ـ الاجتماعى والضميرى؟ التى يعانى منها الزّناةُ، حتى عندما ينفذون جريمتهم فى أماكن بعيدة عن مكان إقامتهم الاعتيادية. كما فى هذه الحالة.

عادا إلى مدريد يوم الإثنين، فى رحلة السابعة والخمسين دقيقة صباحًا. تفرقا عند الوصول لمطار "باراخاس"، حيث انتهينا من المتابعة. الفاعل يناهز الخامسة والأربعين ، أنيق ودفع حساب الفندق بكارت

الائتمان، وهو ما لم يكن أمرًا عاديًا بالنسبة لمواقف الزنا، إلا إذا كانت زوجته لا تمارس أية سيطرة على حسابه المصرفى. طبعًا من الممكن أن تكون تلك المرأة هى الزوجة، فكلاهما يحمل خاتم الزواج فى مكانه المتعارف عليه.

مرفق صورة فورية لواحدة من متنزهاتهم، التى قد كتبنا عنها من قبل، على الشاطئ. كان الفندق يدعى "تروبيكال".

أدخلت إيلينا الصورة والتقرير فى الحقيبة، دفعت الحساب وخرجت. ظل المساء مشرقًا وإن كانت الشمس قد أخذت فى المغيب. نزلت من طريق "إسباسا" حتى شارع "كوراثون دى ماريا" ووصلت حتى البوابة حيث تعيش ابنتها، ولكن بعد أن ترددت للحظة واصلت المسير. كان الربيع والتقرير قد تركا فى جسدها تفاؤلاً محررًا. وصلت حتى شارع "لوبيث دى أويوس" واستقلت سيارة أجرة للعودة إلى المنزل.

كان زوجها قد وصل. تبادلا بضع كلمات لطيفة ودخّنا سيجارة ملفوفة معًا. سألها إنريكى:

- كيف كانت أشياء يوم الأحد؟

ردت إيلينا التى كانت قد جلست فى مقعد أمها:

- جيدة. كان نصيبى المقعد والساعة.

ابتسم زوجها:

- ليس سيئًا. بالإضافة إلى أن منظرهما جميل جدًا هنا. لطالما أعجبتنى أجراس تلك الساعة.

ـ الأجراس والدقات.

ـ والدقات أيضًا.

انتظرت إيلينا حتى تبدأ تأثيرات الحشيش فى الرقبة، أو ربما فى الجبهة، وسألت:

ـ هل تعتقد أننا عاديون من عامة الشعب؟

بدا إنريكى يأخذ شكلاً دفاعيًا، ولكن إيلينا حسبت من بريق عينيه والهبوط الذى كانت تعانى منه جفونه أن الحشيش قد بدأ فى تخريب ذكائه. أخيرًا رد:

ـ أنت لم تكونى أبدًا عادية.

ـ أسألك عنا، لا عنى.

ـ بفضلك لم نكن عاديين.

ـ إذًا أنت عادى؟

أجاب إنريكى فى نبرة بين المرارة والحنق:

ـ أنا أريد أن أكون عاديًا منذ زمن بعيد.

ـ لماذا؟

ـ لأننى أرغب فى أن أكون سعيدًا.

نهضت إيلينا، توجهت إلى وحدة البار. تغاضت عن زجاجة الكونياك وأخذت زجاجة من الويسكى. عرضت كأسًا على إنريكى. كانت على وشك أن تعترف له باكتشاف مذكرات أمها، ولكن فكرت أن زوجها لا يستحق ذلك الاعتراف. عادت للجلوس فى المقعد،

أخذت بضع رشفات وتكلمت متوجهة بالحديث إلى السقف:

- هذه الليلة اكتشفت لماذا لست إنسانة عادية. حسنًا، عندما كنت صغيرة حلمت أننى كنت أصنع حفرًا فى الشاطئ ووجدت عملة. ظننت أنه إذا حافظت على قبضة يدى مغلقة والعملة داخلها، ستظل فى يدى عند الصباح. عندما استيقظت كانت قد اختفت. ولكن فى نفس ذلك الصباح، على الشاطئ، صنعت حفرة ووجدتها من جديد. ولذلك لم تخضع نفسى، مثل إخوتى، لتكاليف الواقع، لأننى مازلت مقتنعة أن الأحلام قابلة للتحقيق.

- رد زوجها فى الوقت الذى كان يتحامل فيه ليشغل التليفزيون.

- كانت هذه مصادفة. سأرى الأخبار.

ظلت إيلينا فى المقعد وأرجلها معقودة. أتت على الويسكى خاصتها، حتى شعرت بالجوع. تحاملت وذهبت إلى المطبخ بهدف أن تُحضّر لنفسها أية شطيرة.

بمرور الأيام التالية وصل الربيع إلى حد من التخلل أثّر فى روح إيلينا. كان من الشائع أن تُغيِّم بالمساء وأن حتى تصل إلى الإمطار بنفس عنف الأشياء التى لا تستغرق وقتًا طويلاً، ولكن تلك الصباحات كانت مشمسة. كانت إيلينا تشعر بتحسن، وإن كانت لم تجهل إنه كان عبارة عن توازن مؤقت للغاية. أعراضه وإن لم تختف، كانت قد خفّت، وضغط تلك القوة المجهولة فوق الأمعاء كان يعمل فقط تحت تأثير الحشيش. عمومًا، كان جسدها يبدو مليئًا باختلالات صغيرة شبحية، كما لو كان المرض يبحث عن مكانٍ مناسب يستقر فيه ويستمر. ذهبت إلى الطبيب فى بعض الأحيان، ولكنها ذهبت دونما اقتناع ولم تقم بالتحاليل التى نصحها بها.

أحيانًا كانت تتذكر موقف الحضانة، وكانت تفكر أنها فى تلك اللحظات كانت قد وصلت إلى حد شىء ما بلا عودة، لكن حقيقة أن استطاعتها الوقوف عند الحد المطلوب كان يعطيها أمانًا كان يبدو أحيانًا مجانًا

وأخرى لا. بما أنها كانت تقضى أيامًا كثيرة فى المنزل قررت أن تُقيل الخادمة، حيث قد بدأت تبدو لها شاهدة غير مريحة، وجود مزعج يتجول فى المسكن كالمرض بجسدها، دون أن تسبب أضرارًا جسيمة ولكن تشعرها بوجودها فى كل عضو من أعضائها، فى كل غرفة من الغرف التى تمر عبرها، كألمٍ يختفى مؤقتًا تحت تأثير دواء ما، ولكن وجوده ـ وإن كان خفيًا ـ لديه القدرة على العمل. البيت دون الخادمة عانى من تدهور ملحوظ، ولكن إنريكى لم يقل شيئًا وإن كان قد أخذ ينظر بتقزز إلى القمصان المكوية بعجلة من قبل زوجته.

كانت إيلينا قد هاتفت وكالة المتقصين بعد أيام قليلة من التقرير. رد على الهاتف نفس شخص المرة الفائتة، والذى حظيت معه بمكالمة محفزة. قالت إيلينا:

ـ تقريركم بدا لنا جيدًا وإن كان وصفيًا أكثر من اللازم.

ـ ماذا تعنى؟

ـ كان يتحدث كثيرًا عن حركة الشخص هدف البحث، ولكن لم يتطرق لتقييم تصرفاته. على سبيل المثال، عندما يقول التقرير إن الفاعل هدف البحث كان يقرأ كتابًا، نريد أن نعرف أى كتابٍ كان يقرأ. يهمنا أشياء عن شخصيته، وليس مجرد علاقة حركات. التقرير، على سبيل المثال، أصاب عندما

تجرأ على التوقع بأن العراك بين الزانيين المشتبه فيهما ذو طابع غرامى. أفهمتنى؟

ـ رد الصوت بشىء من عدم التأكد:

ـ بدايةً.. عملنا ليس مبنيًا على إصدار أحكام، إلا أنه إذا ما استمررنا فى العمل على البحث، سأتكلم مع التحرى ليكون أكثر وضوحًا.

ـ لا نريده أن يكون أكثر وضوحًا، نريده أن يكون أكثر جرأة، حتى وإن كان الباحث سيشترك شخصيًا فيما يرويه. التحرى ليس صوتًا فقط، يجب أن يكون لديه جسد وعمر ومشاعر حول ما يراه. أفهمت؟

رد الصوت بنبرة تأكيد ترن فى هوة:

ـ نستطيع أن نحاول فعله.

حينئذ كلّفت إيلينا بتقرير إجمالى عن إنريكى أخذته بعد أيام قليلة من مكتب البريد. قرأته فى الفراش، بمتعة، فى ساعة القيلولة، كان يقول:

الفاعل هدف البحث لديه ستة وأربعون عامًا، نفس عمر التحرى، وإن كان يبدو فى الواحد والأربعين من العمر، على العكس من التحرى الذى يبدو فى التاسعة والأربعين. يدعى إنريكى أكوستا كامبوس، وهو المدير التنفيذى لشركة استشارات التى تغير اسمها ثلاث مرات فى السنوات الخمس الأخيرة دون أن يبدل ذلك من مقرها الاجتماعى شيئًا. كل ما يبدو يشير إلى أنها شركة وهمية، مرتبطة بدوائر معينة من النفوذ السياسى، بعد تنفيذ عمليات كبيرة اقتصادية

تختفى لتظهر بعد قليل باسم آخر. فى السنة الأخيرة قاموا بعمليتين مهمتين، واحدة مع وزارة الصناعة وأخرى مع وزارة الصحة والبيئة. كلتا القضيتين كانتا تتناولان دراسات سوقية، أو ما شابه، والتى لم يستطع الباحث أن يطّلع عليها. فى حالة ما إذا كان عميلنا يريد المزيد من المعلومات حول تلك الشركة التى تدعى حاليا "نويبوس مِركادوس إس إيه" سيكون من الأجدر أن يتعاقد مع خدمات شركة متخصصة، فحسب قولنا، تلك الشركة لديها العديد من التفرعات _بعض منها عالمى ومخصص فى الدعاية _من الصعب التحقق منها وعن طريقها يدور المال بشكل سرى حتى يختفى، حتى أننا نجهل أين وبأية كميات. الفاعل المدعو إنريكى أكوستا يحيا جيدًا، وإن كان دون تفاخر، ويقضى الكثير من وقته العملى فى الشارع مجريًا اتصالات تؤدى به إلى الذهاب من وزارة لأخرى. من المحتمل أن له مصالح اقتصادية فى فنزويلا والمكسيك، حيث تردد على السفر إليهما فى الشهور الأخيرة. غريب هو اليوم الذى لا يكون لديه فيه غداء عمل، دائمًا ما يكون فى مطاعم الصفوة التى يتردد عليها رجال أعمال وسياسيون.

متزوج من إيلينا رنكون خيمنث، ذات ثلاثة وأربعين عاما وهم بادون عليها. هى امرأة نحيفة عادة ما تكون غائرة العينين، وبالكاد نعرف عنها علاقات. تقضى الكثير من الوقت فى المنزل، على الرغم من أنها كانت فى وقت سابق قد عملت فى القسم

الإبداعى لشركة دعاية صغيرة، لم يعد لها وجود، حيث كان عليها أن تكون فرعًا لشركة الاستشارات التى كان يديرها زوجها حينذاك. على كل حال، المدعوة إيلينا رنكون كانت قد تركت العمل قبل أن تغلق تلك الشركة بسبب الإفلاس الواضح والمحتمل لأسباب ذات طابع شخصى لم يبد لنا أنه من المهم التقصى عنها فى الوقت الحالى، إلا أنه، حيث إننا نجهل أى أهداف يريد ذلك البحث، من المحتمل وجود أخطاء فى تقييم ما هو مهم وما هو غير ذلك.

كلا الزوجين لديهما حسابات مصرفية منفصلة، إلا أن المدعوة إيلينا لا يبدو أن لديها دخلا منتظمًا عدا العوائد الناتجة من مجموعة من أسهم عدة شركات التى ربما تكون مهداةً من المدعو إنريكى أكوستا. فى حساب إيلينا رنكون ثمة دخل حديث، دون تقدير كميته، قد أتى من بيع شقة خاصة بأمها المتوفاة.

العلاقات بين كلا الزوجين هى ظاهريًا علاقات حرية واستقلال متبادل. الحقيقة، هو لديه حياة غرامية غير منتظمة إلى حد بعيد، على الرغم من أنه مؤخرًا يبدو أنه وصل إلى حالة من الاستقرار العاطفى مع أمينة سرّه. هو مدخن دائم للحشيش، وغالبًا كوكايين، ولكنه يقاوم ذلك الإفراط بذهابه بشكلٍ دائم إلى صالة ألعاب رياضية قريبة من مكتبه حيث يمارس اللياقة البدنية حسب الموضة.

لدى الزوجين ابنة فى الثانية والعشرين من عمرها، تدعى مرسدس، متزوجة منذ عامين، وتسكن

فى مدريد. المدعوة مرسدس أكوستا تربطها بالكاد علاقة مع أمها، ولكنها ترى أباها كثيرًا، والذى تحصل منه على مال بشكل دائم إلى حد ما، والذى تربطها به علاقات جيدة لا يبدو أنها لها علاقة، ظاهريًا، بتلك المساعدات الاقتصادية. بالمناسبة الكتاب الذى كان يقرؤه إنريكى أكوستا فى أليكانتى يدعى "لا ميتامورفسيس(*)".

كانت إيلينا قد وضعت التقرير فى درج الكومودينو بجانب يوميات أمها ثم حاولت النوم بلا جدوى. كانت متحمسة ومستمتعة بالأفق الذى انفتح أمام حياتها بسبب هذا التقرير. تقلّبت عدة مرات فى الفراش وأخيرًا تحاملت وأخذت الكشكول الأخير، رقم ستة، من يوميات أمها. كانت قد فكرت أن تقرأ النهاية ولكنها قررت ألا تفعل كما لو أن اللحظة لم تحن بعد، كما لو كانت ستجد نفسها غارقة فى سلسلة من الأحداث الدلالية التى من المهم أن تحتفظ فيها بهدوئها وتعتنى بكل شىء فى حينه لكى لا يحدث فى نظام السلسلة أى خلل. حفظت الكشكول فى الكومودينو وأشعلت سيجارة استطعمتها ببطء، مراقبة تلاعب الأضواء التى تعكسها النافذة على السقف. لا مجال للشك أنها كانت تفكر، ولكن رأسها، أكثر من كونها تنتج أفكارًا، كانت تعدُّ مجرى لتلك الأفكار لتمر بها فى المستقبل الوشيك.

(*) هو أحد أهم أشهر أعمال كافكا ويسمى بالعربية التحول أو المسخ وهو عن قصة شخص تحول إلى حشرة، ويقال إن الرواية كانت انعكاسًا لما كان يشعر به كافكا من اضطهاد ودونية من قبل ما يحيط به، وخاصة كيهودى فى ذلك الوقت.

على هذا الحال استيقظت فى السادسة مساءً على فكرة مهاتفة وكالة المحققين، ولكن قبل أن تفعل دخنت سيجارة محشوة، كانت تريد أن تظهر نفسها بشكل خاص خالٍ من الأعباء الأخلاقية على مدار المحادثة.

لسببٍ ما، تأخر تأثير الحشيش فى الظهور، ومن أجل أن تسهل له إيلينا عملية سيره شربت كأسًا من الويسكى. بعد الرشفة الأولى شعرت بكمال جسدى غير خال من شعور مؤكد بالقدرة على فعل كل شئ. جلست بجانب هاتف الصالون، والكأس والمطفئة على يمينها، دون أن تكف عن مراقبة ساعة ومقعد والدتها اللذين كانا بمواجهتها. الفراغ البادى على المقعد أدى بها لفكرة غياب رهيب وإن كان مؤقتًا. كان ينقصه بالفعل رابط يوحده بالساعة، فكلا الشيئين يرتبطان بشكل سيئ فيما بينهما دون حضور الأم، كما لو أن الثلاثة كانوا قد شكلوا وحدة غير قابلة للانفصال وغامضة، من نفس النوع الذى يشكله الأشخاص الثلاثة للثالوث المقدس، ومع ذلك فهو غموض لم تستطع أمها الإيمان به.

أخذ السماعة الرجل الذى يرد عليها كل مرة، دخلت إيلينا ، بعد أن عرَّفت نفسها وحيَّته، فى صلب الموضوع مباشرة. قالت:

- التقرير الأخير لا يفى بما نحتاجه ومازال يتوجب تصحيح بعض الأشياء.

تنفس الرجل على الناحية الثانية بضيق صدر وفهمت إيلينا أنه كان مستسلمًا. أجاب الصوت أخيرًا.

إنه من الصعب عمل تقرير مجهول الأهداف. فليس الأمر نفسه، على سبيل المثال، عند عمل تقرير اقتصادى مالى لشخص أو لمؤسسة ما، وعمل بحث عن خيانة زوجية موجهة إلى الإجراءات القانونية لطلاقٍ ما. نحن ـ المحققين ـ نحتاج إلى "تقديم"، كما يقال فى العالم الإنجلوسكسونى، لكى تكون تقاريرنا موجزة وفعالة فى الوقت نفسه، باختصار، لكى تكون فى قلب الموضوع. لذلك ربما كان يساعدنا كثيرًا عمل مقابلة شخصية مع العميل.

ردت إيلينا بنبرة حاسمة وإن كانت خلابة:

لقد قلت لك إن هذا مستحيل، وإن كنت سأوضح لكم بعض الجوانب لعلها تساعدكم فى القضية، بالطبع إذا كان مازال يهمكم ذلك العمل.

أسرع الصوت بتأكيد اهتمامه، وابتسمت إيلينا باتجاه مقعد أمها. من المحتمل أنها فكرت أنها قد هاتفت وكالة يوجد بها محقق واحد فقط، الذى كان يديرها هو أيضًا، والذى كان مستعدًا على الناحية الأخرى من الهاتف لفعل أى شىء لكى لا يفقد ذلك العميل الشبحى الذى كان قد بدأ فى إعطائه بعضًا من الدخل الثابت. تابعت إيلينا حديثها:

لقد أعجبتنا بعض التفاصيل فى التقرير الأخير، مثل أن يقول التحرى عمره، ولكن لم يعجبنا تلك

النبرة العامة التى مازال يستخدمها مثل" نحن نعتقد، نحن نظن،..." والذى يبدو وكأنه البابا وليس إنسانًا من لحم ودم. فليستخدم لاحقًا "أنا" وليظن أنه يقص الأشياء، لا أعرف، لصديق وليس لمجلس إدارة. أفهمت ما أريد قوله؟

- أجاب الصوت بلمسة حقد ملحوظة فى نبرته:

- نعم يا سيدتى.

قررت إيلينا أن تخفف من حدة الموقف فاستطردت:

- لا تسئ فهمى، التقارير جيدة للغاية وهى موصوفة بدقة، ولكن ينقصها صوت الراوى الشخصى، صوت إنسان له رأى حول كل ما يسمعه ويراه.

سأل الصوت بنبرة تحتاج إلى دافع:

- أأعجبتك التقارير إذًا؟

قلت لك إنها جيدة جدًا، بها عناية شديدة فى التركيب، ولكنها مختصرة بشكل مبالغ فيه كما لو كان التحرى، الذى لا ننسى أنه هو الذى يروى، محصورًا داخل مَشَدّ ملىء بشكليات وجمل مصنوعة من قبل لا يستطيع منها فكاكًا. على سبيل المثال، فى التقرير الأخير صورة المرأة (إيلينا رنكون، على ما أعتقد أنها هكذا تدعى) لم تكن مرسومة جيدًا. الموضوع أنه كان لديه إصابة فائقة بوصفها كامرأة غائرة العينين،

ولكننا لا نعرف هل هذا ملمح وجهى أم نتيجة لنظرة معذبة. ولا نعرف ماذا ترتدى ولا إذا كانت سعيدة أم تشعر بالوحدة.

بدا الصوت وكأنه يعتذر:

ـ هذه الأشياء تندرج تحت مجال الذاتية، حاولى أن تفهمينى.

أجابته إيلينا وهى ترتشف بصعوبة بعضًا من الويسكى:

ـ حاول أن تفهمنى حضرتك، لأن الأمر يتكلم عن هذا، عن أن تكونوا ذاتيين، ذاتيين للغاية.

فى تلك اللحظة، أخذت ساعة البندول فى الدق ربع الساعة معلنة الساعة السادسة مساءً. وجّهت سمّاعة الهاتف نحو الحائط حيث توجد الساعة وعندما توقفت عن الدق تحدثت فى الهاتف ثانية:

ـ هل سمعت حضرتك هذا؟

ـ الأجراس؟

ـ نعم، الأجراس. تلك الأجراس هى لساعة بندول جميلة وأنيقة، وهى بدورها موجودة فى صالون فاخر جدًا من حيث أتحدث مع سيادتك مضطجعةً على متكأ من الجلد. الساعة والصالون والمتكأ للشخص الذى نعمل أنا وسيادتك لديه، كلٌ فى موضعه، وله وظيفته الخاصة. أستطيع أن أؤكد لكم أن عميلكم، رئيسى، كريم للغاية عندما يُعطى ما يطلب، وما يطلبه من سيادتك هو الذاتية. اتفقنا؟

رد الصوت بعزم الذى بدا وكأنه فهم وأخذ على عاتقه برضا الطلب فى الوقت نفسه:

- اتفقنا.

- شىء آخر. لا تُضع سيادتك وقتك متحريًا عن أعمال إنريكى أكوستا المزرية، نعرف الموقف جيدًا. اعمل لنا تقريرًا، ليس من المهم أن يكون طويلاً ولكن وافيًا، عن ماضيه، وأكثر منه عن ماضيه، عن كيفية وصوله إلى ما هو عليه الآن. افهمنى: لا تصف أكثر من اللازم، أدخل فى المهم.

عندما أغلقت الهاتف كان البشر يطفح منها. المزيج بين الحشيش والويسكى، ولأول مرة من زمن بعيد، لم يؤثر فى جسدها أى تأثير مؤلم. أشعلت سيجارة وذهبت لتجلس على مقعد أمها بنية أن تبدأ فى قراءة رواية هناك، ولكنها كانت مأخوذة بدرجة من الإثارة منعتها من التركيز فى القراءة. تركت الكتاب وتفرغت للإنصات إلى دقة الساعة. الحقيقة كانت قد فقدت الجو الجنائزى للأيام السابقة والتالية لوفاة أمها. كان يدخل من خلال نافذة الشرفة ضوء نظيف وأزرق يوحى بوجود البحر. فجأة، شعرت إيلينا أن الساعة والمقعد وهى نفسها يشكلون دائرة ما، وفهمت بشكل غامض أن خوفها لم يكن ينبع من احتمالية التقائها بأمها على المقعد، وإنما أن تتحول هى نفسها إلى أمها، مجذوبة إلى ذلك المشترك الذى كانت تمثل فيه، فى تلك الآونة، صلة ما أو رابطًا ما. الفكرة، التى كان بها شىء من الخبث، لم تُنتج أى انطباع فورى فى

أحشائها، ربما لأنها كانت فى اللحظة الأكثر تأثيرًا التى اعتاد أن يسببها المزيج بين الحشيش والويسكى. على العكس، فكرت ببعض العاطفة فى قرينتها وهنأت نفسها على لحظات المتعة التى بلا شك كانت تعطيها إياها خلال حديثها مع المحقق.

وصل زوجها فى التاسعة ودخنا سيجارة ملفوفة معًا فى المطبخ قبل العشاء. كان من الشائع ألا يتكلما، ولكن لم يكن أبدًا ثمة توتر فى صمتهما أو إنه كان قد اختفى منذ سنوات طويلة. سألته إيلينا :

- هل رأيت مرسدس؟

- لماذا؟

- أعلم أنكما تريان بعضكما البعض كثيرًا من وراء ظهرى، ولا يهمنى.

أجاب إنريكى بإرهاق:

نحن لا نرى بعضنا البعض من وراء ظهرك. تبدين وأنك تتكلمين عن عشيقة أكثر منها ابنة. إننا نبقى فقط على علاقة كانت مستحيلة فيما بينكما.

- غلطتى أنا؟

- ليست غلطة أحد، أقول فقط ما يحدث.

- ماذا تعتقد مرسدس فىّ؟

- كان يجب أن تسأليها هى، ولكنى أعتقد أن فى علاقتكما كنت أنت دائمًا من يضع حدًا ما من البُعد

ومن البرود مما أدى إلى البعد بينكما. على سبيل المثال، تعرفين أنها كانت تعشق أمك، التى كانت جدة طيبة، ولكنك لم تذهبى حتى إلى جنازتها.

ـ ردت إيلينا بملمح جامد:

ـ لم أكن بحالة جيدة.

لم يضف إنريكى جديدًا. أتت أجراس ساعة البندول خافتة من الصالون فزادت من الصمت المتوتر للدقائق الأخيرة. حاولت إيلينا أن تغير النبرة. قالت:

ـ بالمناسبة، لى أيام أبحث عن كتاب التحول، لكافكا، فى المكتبة. اختفى.

ـ معى فى المكتب، انتهيت من قراءته، ولكنى أنسى إحضاره كل يوم.

ـ لماذا رغبت فى قراءته من جديد بعد كل تلك السنوات؟

ـ فكرت منذ وقت قليل أننى كنت دائمًا أقرؤه من وجهة نظر الضحية وقررت أن أقرأه من وجهة النظر الأخرى، محاولاً وضعى فى مكان والدى الحشرة ورئيسه وأخته.

ـ ولماذا؟

حسنًا، الأمر له علاقة بشىء أكثر تعقيدًا. كنا فى المكتب نصنع مشروعًا لإصلاح ضاحية لصالح وزارة الإسكان، عندما ذهبت إلى هناك ورأيت حالات معيشة الناس تذكرت صراع الطبقات وكل هذا. تلك

الليلة، بعد تدخينى لسيجارة ملفوفة، فهمت أننا، فى وقت سابق، دائمًا ما كنا نتكلم عن صراع الطبقات وكنا نصنع ذلك من وجهة نظر الخاسرين. إلا أننى، أنا شخصيًا، كنت قد ربحت تلك المعركة فى السنوات الأخيرة، ولكنى كنت ما أزال أتكلم كما لو كنت أعيش فى ضاحية ما. لذلك قررت إعادة تشكيلى.

وضعت إيلينا السلاطة فوق المائدة، نظرت إلى إنريكى كما لو كانت تتعرف عليه من جديد، أو كما لو كانت تبحث فى وجهه عن ملمح لصورة ضائعة. أخيرًا قالت:

ـ أنت متملق.

وكان هذا كل شىء.

فى الأيام التالية بدا أن إيلينا فقدت خوفها من المقعد. تناولت عليه أول فنجان قهوة فى الصباح، تحت دقات وأجراس الساعة، التى كانت تحسب الإيقاع الذى كان، تحت قانونها الوقتى، يتطور مسلسلاً مظلمًا من معانى الاستمرار ومن هدف غير متوقع. حبكة ما كانت تخص وجودها والتى كانت تبدو أنها تنظم نفسها من وراء ظهرها. لم يكن من خلف ظهرها تمامًا، وإنما فى الجزء الأكثر ظلمة فى حياتها.

فى نفس المقعد قرأت أيضًا ثالث تقرير كلفت به وكالة المحققين. كان يقول الآتى:

حياة إنريكى أكوستا كامبوس من الممكن أن تستحق ثلاثة أسطر أو مائة صفحة، حسب المكان الذى سيكون فيه الشخص ليحكى عنها، وحسب الأشخاص الذين يدفعون من أجل هذه القصة، وحسب القيمة التى ننسبها إليها. ذلك المحقق، لأسباب ميل شخصى، ولأسباب نوع العمل الذى حققه

حتى الآن لديه ميل فى تحرياته إلى وجوده فى المكان الأكثر صمتًا فى الموضوع. فى فضاء أبكم، بمعنى أصح.

أقول هذا لأن عرض عميلى المريك، الذى يطالبنى بأن أكون ذاتيًا، وبناءً عليه أن أكون مشبوب العاطفة، يضعنى فى مواجهة اهتماماتى ذات الطابع الثقافى. ربما مصطلح ثقافى يبدو مبالغًا فيها لنوع الثقافة التى تنسب إلينا نحن الذين نقوم بهذا النوع من العمل. ولكن هكذا هى حالتى، ولن أكذب فى سبيل الحيادية التى لا يدفعون لى من أجلها. أنا خبير جنائى فاشل، ولكن فى النهاية خبير جنائى. عملت العديد من الدراسات المتعلقة بتلك المادة ولى بعض الكتابات التى من المحتمل أن تصل يومًا إلى ظفر الطبع، إلى شرف الحرف المطبوع. الأمر الذى حصل عليه آخرون باستحقاقٍ أقل.

حسنًا، هذه التناقضات _المؤلمة مهنيًا فى البداية، ولكن لا يمكن الفرار منها، حيث إننى يجب أن أكسب عيشى _أضاءت وجودى بعض الشىء، لأنها وضعتنى بمواجهة رجل: إنريكى أكوستا، وهو فى حالات كثيرة نيجايف لى، وضد.

كان يمكن القول إن ذلك الشخص، هدف البحث القائم، ينتمى إلى عائلة من الطبقة المتوسطة وهى واحدة من اللاتى وصلن إلى مستوى اقتصادى جيد فى الستينيات. وكنت لأضيف أنه درس الحقوق، وفى

الجامعة تعرف إلى من هى زوجته اليوم، إيلينا رنكون، وهو قد شارك بشكلٍ فعّال فى الحركات الطلابية فى ذلك الوقت، ووصل به الأمر إلى الاشتراك فى أحد الأحزاب اليسارية التى اختفيت الآن أو صُفّيت، ربما على يد الأحزاب التى بيدها السلطة _أو حواشى السلطة ـ حاليًا.

كنت لأستمر على هذا المنوال، أتقصى عن معلومات، تواريخ، أسماء، وأصنع سيرة مترابطة أو غير مترابطة، ولكن مدعمة بشهادات ومواقف دقيقة، وبارزة، تعطى هيئة وصلاحية لذلك التقرير. كنت لأضيف حتى أننا ربما كنا زملاء، لأن لنا نفس العمر، وإن كنت أبدو أكبر سنًا، وأيضًا أنا درست فى كلية الحقوق فى تلك السنين، وإن كان يجب أن أعترف إننى كنت متأخرًا بعض الشىء، فلقد بدأت أدرس الثانوية فى سن متأخرة، وكان يجب على أن أوازن بين دراستى وأعمال أخرى متنوعة لم تتح لى كثيرًا من الوقت للعلاقات الشخصية.

ولكن ولا شىء من هذا ضرورى إذا كان عميلى يصر على أن أكون ذاتيًا. فى رأيى، وهذا هو ما يريدون أن يعرفوه من يدفعون لى، هذا الفاعل، الذى كان ليعيش فى شاليه لو لم يكن يخشى النباتات، لعب على موجة الثورة فى حينها وبعدها، مثله مثل آخرين كثيرين، وأصبح متكيفًا شيئًا فشيئًا مع احتياجاته الغذائية والجنسية، دون أى انقطاع، وبتحول غير

محسوس وبطيء قاده إلى حواشى السلطة، حيث نجده مستقرًا بشكل مريح. أعرف جيدًا ذلك النوع من الناس، يتركون أشخاصًا مثلى وقد ألقوا فى الشوارع، من الذين ـ وهو شيء ضرورى الاعتراف به- يفتقرون إلى الذكاء اللازم أو نقص ضرورى للضمير، لننتبه بعد وقت كاف لما كان سيحدث. بالنسبة لهم الحبس كان وسامًا علّى صدرهم، شيء مثل إصابة حرب، ولكن بالنسبة لى كان معناه وجوب ترك الدراسة وميلى الجنائى الحقيقى الذى كنت أشعر أن الله قد حبانى إياه بالفطرة. صنعوا الثورة، كما يقال، واستطاعوا أن ينالوا فيما بعد مكاتب، ونصائح إدارية، وإدارات عامة التى بسببها فقدوا ذكر من هم مثلى من الناس. هم كما كان حالهم دائمًا، بعض المدللين، ولكن حافظوا على تلك الفترة من حياتهم فى الاستمتاع بالحشيش أو الكوكايين، أو بموسيقى لا أفهمها، لأنهم يعتقدون أن هذا يجعلهم مختلفين. لحسن الحظ، بعضهم أصابه السرطان أو الإيدز مما يجعلهم منهكى القوى فى عيادات ذات شهرة دولية حيث يرعى الناس موتاهم مثلما كانوا يتملقونهم من قبل. إنهم أناس حقيرة، أولاد عاهرات، وإنريكى أكوستا هو الرأس الكبيرة، عدوى. هذه هى الذاتية والباقى ترهات. حسنًا.

فيما يتعلق بإيلينا رنكون خيمنث، زوجته، لديها قصة مشابهة ولكن بصفة امرأة، طبعًا. بالمناسبة، غور عينيها مردُّه بلا شك هو تناولها للمخدرات، وإن كان

ضربًا من المجازفة القول أى نوع من المخدرات، وأين يُؤخذ. لا تخرج إلا قليلاً ولكن عندما تخرج لا تقصد مكانًا بعينه، وتضع نظارة الشمس لتخفى اتساع حدقة عينيها غير الطبيعى. فصلت خادمتها عن العمل منذ وقت قليل، تلك التى كان هذا المحقق على صلة بها ولكن دون الحصول منها على أية معلومات قيمة، فلقد كانت امرأة محدودة الثقافة وذات مواهب قليلة فى المعرفة. كانت إيلينا رنكون لتصبح خليطًا من ربة منزل معاصرة وامرأة متحررة لا تطيق أعباء عمل ثابت. طريقتها فى اللبس غير متكلفة، ولكنها ليست بسيطة أيضًا. تستخدم نوعًا من الملابس غالية تبدو أرخص مما هى عليه حقيقة. أنه لشىء مثير للفضول أنها لا تُظْهر أنها أكثر شبابًا.

ظلت إيلينا مشوشة للحظات كما لو أنه انفجر بين يديها قنبلة هى التى صممتها ولكن لشخص آخر. ظلت لوقتٍ غير قصير تراقب ضوء النافذة، تمرن ساقها اليمنى التى كانت معلقة فوق الفخذ الأيسر فى حركة بندولية تتبع إيقاع دقة الساعة الكائنة فوق رأسها. ها قد أمست، والسحب القليلة المتمزقة ككرات من القطن العفن اكتسبت لونًا ورديًا يوحى بوجود مرض ما. عندما وصل إنريكى كانت تجلس على نفس الهيئة، ولكنها أخذت وقتًا، قبل أن يدخل إلى الصالون، لتخفى التقرير وتعدل ملامح وجهها. لف زوجها سيجارة وعرضها عليها، ولكن إيلينا رفضت. سألها إنريكى:

ـ لماذا؟

ـ لم أعد أشعر جيدًا مؤخرًا.

ـ هل عدت لمشاكلك مع الجهاز الهضمى؟

ـ ليس الجهاز الهضمى بالضبط. الموضوع أكثر شمولية. عندما أدخن لا أستطيع التحكم فى الصور.

ـ أية صور؟

ـ صور حياتى، ما كنت وما أنا وما سأكون عند عجزى، إذا ما كنت مازلت أستطيع أن أتحدث عن نفسى كشابّة.

ابتسم إنريكى قائلاً:

ـ إنك تقضين وقتًا طويلاً فى المنزل.

ـ تخيفك تلك الأحاديث، أليس كذلك؟

كان إنريكى قد اضطجع على الأريكة، واضعًا يده اليسرى على قفاه واليمنى ممسكة بالسيجارة الملفوفة ناظرًا إلى إيلينا ، التى كانت لا تزال تجلس على مقعد أمها. ابتسم إنريكى الذى كان يبدو شابًا للغاية ذلك اليوم وقال لها:

ـ لا يا إيلينا ، أشياء قليلة جدًا التى باتت تخيفنى. ما يشغلنى هو أنت، الحالة التى تعيشين فيها، بعدك عن رؤية الأصدقاء، عزلتك، وعادتك الغريبة تلك فى التفكير كثيرًا فى الأشياء –نظر إلى الساعة ولبس وجه الغضب. عندى الليلة عشاء عمل رهيب، سيتوجب علىّ أن أرتدى ملابسى.

كويت لك القميص الوردى.

شكرًا، أرغب فى ارتدائه.

قام إنريكى وأطفأ السيجارة وتوجه إلى حجرة النوم. تبعته إيلينا وجلست على حافة السرير مراقبة إياه. أخيرًا قالت:

بماذا يؤثر عليك الحشيش الآن بعد كل تلك السنوات؟

أقل من ذى قبل، ولكنى مازلت أخرج منه بفائدة. يجب أن تضعى فى اعتبارك أننى أبدًا لم أدخن كثيرًا مثلك، هل تتذكرين تلك السنة التى ذهبنا فيها إلى المغرب؟ ظللت ثلاثة أيام معلقة ترين اللّه والشيطان وأهل السماء كلهم، دائمًا ما كنت تميلين لاستعجال التجارب. أنا لى إيقاع آخر.

- ولكن، بماذا تشعر؟

- وجهة نظر. أرى الأشياء دون عاطفة وأفهم فخّها.

- أى فخ؟

الفخ الموجود خلف كل شىء. أنا وأنت مستمران معًا بفضل الحشيش، الذين لم يجربوه اعتقدوا أنه من الممكن أن يبدءوا علاقة مختلفة وهأنت قد رأيت، يفشل الأزواج، زوجين إثر زوجين ليكررا نفس الفشل. ثم إنه مازال يساعدنى كثيرًا فى المعاشرة الجنسية.

- أنا وأنت لا نتعاشر جنسيًا.

كنت أتحدث عمومًا.

ـ لم أفهم ما قلته بشأن الفخ.

انتهى إنريكى من عقد ربطة العنق وذهب ليجلس على السرير بجانب إيلينا . كان قد ترك ملمح الأمان السابق مما جعله يشيخ. بدا أنه يفكر لعدة لحظات ثم قال:

مازلت لا أعرف كيفية شرحه، ولا عندى الاهتمام لإمكانية فعله لأنه يكفينى فهمه بديهيًا، عن طريق جانب العقل أو المعدة المكلف بفهم مثل تلك الأشياء. ولكن ثمة فخًا أساسيًا، الذى ننزل نحن على شروطه، وكمية من الفخاخ الملحقة التى نستطيع أن نتفاداها أو لا. أنا قررت أن أتفادى الفخاخ الملحقة. هل تذكرين عندما مات والدى؟ كنت قد ذهبت لرؤيته قبل بضعة أيام، وقد كان فى ذلك الوقت يخلط كل شىء بكل شىء. أكيد أنه كان لا يعلم من يكون ولا أين يكون. ولكن ظل للحظات بدا فيها وكأنه يعيد معرفتى ثم أدلى إلى باعتراف، لن أقول إنه غير حياتى لأننى أمقت مثل تلك الجمل ذات الهيئة المتكلفة، ولكنه كان مثل سُم أو اكتشاف ظل يؤثر فىّ على مر كل تلك السنين، وجعلنى الحشيش أفهمه وإن لم يعلمنى كيفية توضيحه.

كانت إيلينا تبدو خائفة ولكنها واصلت سؤالها:

ـ بماذا اعترف لك؟

ـ قال لى إنه قد عمل العادة السرية الليلة السابقة وأنه لكى يفعلها لجأ إلى نفس التصور الذى

كان قد استخدمه فى أول مرة يفعل فيها هذا. ظل بعدها صامتًا لعدة لحظات ثم أضاف "فى الواقع دائما ما كنت أستخدم نفس التصور مع تغيرات طفيفة" هل انتبهت لذلك؟ كم مرة يفعل المرء فيها العادة السرية على مر حياته؟ آلاف المرات؟ مئات الآلاف من المرات؟ ملايين المرات؟ لا أعرف، ولكن نعم أعرف أن كل مرة يظن المرء أنه يكرر تجربة فريدة من نوعها ومختلفة، فى حين أن الحقيقة هى أننا نظل مربوطين لنفس الهاجس منذ البداية. لا أعرف ماذا يعنى هذا، ولكن نعم أعرف أنه قد أدخل فى حياتى عاملاً من المعرفة لم يكن موجودًا قبلاً، وقد ساعدنى فى الوصول إلى نوع من الاتفاق مع نفسى، ومع متناقضاتى وأمانىّ.

قالت إيلينا كما لو لم تكن تستمع إليه:

- لا أفهم.

- سأقولها لك بشكلٍ آخر: هذا الاعتراف جعلنى أكبر فجأة، وبأسوأ معنى للكلمة، بالمعنى الوحيد الذى يمكن أن يكون فيه فعلاً المرء أكبر.

عندما خرج إنريكى من المنزل، جلست إيلينا على المقعد وأخذت فى البكاء، وإن لم تكن تشعر بأى ألم نفسى أو عضوى يبرر بُكاءها، كان بمعنى أصح عبارة عن راحة، كما لو أن جسدها كان قد قرر أن يخفض لبعض الوقت دفعاتها ويسمح لنفسه بانكماشة ما، بوقفة ما هدفها استجماع قواها. ظنّت أن البكاء ربما كان يكمل الوظيفة التى كانت تكملها الإغماءات منذ

أيامٍ أو شهور، تلك الإغماءات التى خرجت منها عمومًا أكثر قوة. عندما توقف البكاء تذكرت، كعادة، العشاء، ولكنها لم تكن ترغب فى الأكل. فكرت أنه كان أمامها إمكانية لف سيجارة وأن تجلس نائمة على المقعد، مشاهدة التليفزيون إلى أن يعود زوجها، ولكنها ربطت تلك الاحتمالية بالكونياك وأدوية علاج القلق وتقرير المحقق. قررت ألا تفعل، فى الحقيقة، لم يكن عبارة عن قرار شخصى، كان يبدو وكأنه يأتى من إرادة خارجية، وإن كانت مرتبطة بإرادتها فى بعض الروابط الخفية.

فكرت بمسحة من السخرية أنه ربما كانت تدين لقرينتها بأنه لسبب ما بعد كل تلك سنوات العمر كانت قد قررت أن تبدأ فى رعايتها، أن تبدأ فى رعاية نفسها. الحقيقة أن تأثيرات الحشيش التى كانت مرغوبًا فيها للغاية أمس أصبحت غير مرغوب فيها اليوم، كله كان قد حدث بشكل ظاهرى مجانى وبسيط، مثل باقى الأشياء فى حياتها.

قررت أن تذهب إلى السرير وأن تقرأ حتى تجلب الكلمات النعاس. عند رقدتها تذكرت شيئًا، مجانيًا أيضًا، "لجريجور سامسا"(*)، الذى كانت تحبه كثيرًا فى وقتٍ سابق، وفكرت أنها خلال السنوات الأخيرة قد تحولت هى أيضًا إلى حشرة غريبة، على عكس كافكا، كانت تأخذ فى استعادة صورته القديمة قبل الموت، قبل أن يقتله الآخرون. استطاع ذلك التفكير أن

(*) بطل عمل كافكا (التحول).

يثيرها، فلقد ظنت أنها لو كانت تستطيع أن ترجع عن ذلك التحول كانت الأشياء لتصبح مختلفة، وكانت لتخرج إيلينا من ذلك التحول بقوة خاصة، بحكمة كانت لتواجه بها بلا خوف آليات العالم، أو الذين يتحكمون لمصلحتهم الخاصة، ضدها، فى تلك الآليات السابق ذكرها.

كانت ستأخذ رواية لها شهور فوق الكومودينو، ولكن دفعة ما - لم يعد بها خوف، وإنما رغبة فى المعرفة - دفعتها لفتح درج وحدة الأثاث وأخذت واحدًا من كشاكيل يوميات أمها. كالعادة، بحثت مصادفة عما بدا لها بداية حلقة ما، وقرأت:

فقط فى حالة واحدة سافرت إلى الخارج، ولذلك أتيحت لى الفرصة للإقامة فى أحد الفنادق. رافقت زوجى لمدينة فرنسية تدعى "بوردو"، التى أرسلته إليها شركته ليشرف على بعض الأعمال الخاصة بتخصصه. مكثنا هناك يومين فقط، وأنا بقيت طوال الوقت فى الفندق، الذى كان جيدًا للغاية، ولم أكن أعرف كيف أتجول به. اضطر زوجى للخروج فى الليلة الأولى ليقوم ببعض الالتزامات الاجتماعية التى لم أكن مدعوة للمشاركة فيها. أتذكر أننى ارتديت قميص النوم الخاص الذى أحضرته، وانتظرت زوجى متفحصة معالم الغرفة، ومراجعة كتاب بالفرنسية لواحدة من بناتى، والذى وضعته فى الحقيبة لتعلم بعض الجمل من تلك اللغة. كان قميص النوم مثيرًا بعض الشىء لأننى ظننت أن البقاء فى

الخارج كان مثل أن أصبح شخصًا آخر، وأننا هناك كنا لنتعامل كأشخاص آخرين، كما لو كنا متعودين على السفر عبر الأنحاء المختلفة للعالم الكونى، ساحبين معنا فى الحياة الفاسقة بعض الشىء التى يحياها أولئك القوم الذين يتحركون كثيرًا وبفطرة كبيرة. فى لحظة ما ذهبت إلى الحمام لأنظر إلى نفسى فى المرآة، لأن الحمام كان به مرآة كبيرة جدًا، وبلا عيوب، مضاءةً بكمية من الأنوار البيضاء، بيضاء جدًا ولامعة، مثل باقى الأدوات الصحية (الحوض، قاعدة الاستنجاء، حوض الاستحمام، وصحن قاعدة الحمام) التى كانت تبدو كقطع من الأثاث أكثر منها أدوات صحية للجمال الذى كانت عليه. على الرغم من أن الذى كنت سأقدم عليه بدا لى كفعل شائن، شرعت أفعله.

وقفتُ أمام المرآة، وأصلحتُ شعرى، غسلتُ أسنانى ثم أنزلت حمالات قميص النوم واكتشفت نهدى اللذين أصبحا الجزء الأكثر ظهورًا فى جسدى. لم يكونا مثلما كانا قبلاً (أقول قبلاً قاصدة شبابى)، ولكن لم يكن يعوزهما الجاذبية. وضعت يدى عليهما، من أسفلهما، لأرفعهما بعض الشىء، ولاحظت ورمًا غريبًا فى النهد الأيمن. أعتقد أننى أخذت أتصبب عرقًا من الخوف، وكنت على وشك الإغماء عندما استطعت الجلوس على قاعدة الحمام حيث رفعت الحمالات وأخذت أنظر إلى الصور الموجودة على سيراميك الحوائط. ظننت وقتها أنه ربما هو إحساس

مزيف، ولكننى لم أجرؤ على التأكد من صحته. فكرت بعدها فى حالة الورم وحجمه (كان كبرتقالة صغيرة أو كحبة يوسفى) وعزّيت نفسى بأنها ربما كانت هناك لسنوات عديدة تنمو ببطء حتى أننى لم أنتبه لها، فأنا أبدًا قبل سفرى إلى الخارج ما تجرأت على لمس صدرى على هذا النحو. كان بإمكانى أن أواصل على هذا النحو لسنوات عديدة أكثر، ولم أكن لأعاود لمس صدرى أو السفر إلى الخارج لكيلا أنتبه لما ألمّ بى أو ربما كنت لأنساه وكنت لأصبح عجوزًا جدًا قبل أن ينمو الورم بشكلٍ زائد.

عندما استطعت أن أهدأ لبعض الشىء، وقفت مرة أخرى أمام المرآة، وأنزلت الحمالات، ودون لمسهما تفحصتهما بدقة، وتأكدت من أن الحلمة اليمنى مشفوطة إلى الداخل بعض الشىء كما لو أن ثمة قوة داخلية تجذبها نحوها. يا إلهى، أى خوف كان يتملكنى. كم من الخوف يمكن أن يسعه جسد بشر، خاصة إن كان جسد امرأة، لأن الرجال مخلوقون بشكل آخر، بتعقيدات أقل منا، ولذلك يسافرون ويفعلون أشياء ممنوعة دون أن يحدث لهم شىء.

ظللت لفترة طويلة فى الحمام. دون أن أفقد وعيى، على الرغم من أنه كان لدى سهولة حقيقية لحدوث ذلك، خاصة منذ أن بدأت إيلينا، قرينتى، فى تناول الكحوليات والأقراص. انتابنى تفكير غريب ربما كان يخص قرينتى، التى كانت لتكون فى فندق آخر عكس فندقى ترتجف من الخوف مثلى. فكرت أنه فى

حمامات الفنادق من السهل نسبيًا عمل ميثاق مع الجنون. كل شيء يلمع ونظيف جدًا ومزود بانحناءات ناعمة جدًا حتى ينزلق الجنون على أسطح الأشياء دون أن يصيبه مكروه. بالإضافة إلى ذلك، حمامات الفنادق الغالية (البنسيون شيء آخر: الذهاب إلى بنسيون كالعودة إلى المنزل) لا تكون باردة وإن ظل المرء فيها عاريًا لوقت طويل. عندما عاد زوجى، كنت قد عقدت ذلك الاتفاق الغريب الذى من المؤكد أنه كان مسألة متعلقة بقرينتى، إلا أنه بدا لى جيدًا، واضطجعت وعيونى مفتوحة. فى الأول تصنّعت النوم، ولكن بعد إلحاحه توقفت، وفعلناها كما لم نفعلها أبدًا من قبل.، أفضل بكثير من المرات الأولى التى كنا فيها أكثر شبابًا، ولكننا لم نكن نعلم أننا كذلك.

لذلك كان يخيفنى أن تسافر بناتى إلى الخارج وأن يذهبن إلى الفنادق، خاصة إيلينا، التى أقحمها زوجها هذا فى أشياء متعلقة بالسياسة هى لا تستوعبها.

أغلقت إيلينا الكشكول وحفظته فى درج الكومودينو، بجانب باقى اليوميات وتقارير المحقق. كانت تتصبب عرقًا بشكل غير طبيعى، وترتجف من هجر ما أو من رعب ما. انكمشت فى السرير وتدثرت باللحاف وأخذت تكرر ماما ماما كما لو كانت طفلة انتهت من المعاناة من كابوسٍ ما. عندما توقفت الرعشة، تذكرت من جديد قصة الشاطئ والعملة رابطة إياها بالعثور بالصدفة على اليوميات فى أعماق

غرفة نوم أمها، وعلى الرغم من أن اليوميات كانت كنزًا مختلفًا، فلقد كان نيجاتيف صورة كنز، ولكن كان سيتوقف عليها تغيير تلك الصورة. مُحوِّلة الفاتح إلى غامق والغامق إلى فاتح، كما فى تلك العملية الفوتوغرافية التى تعيد إلينا أخيرًا الصورة الحقيقية لواقع منصرم، ميت، ولكن بقدرة على السيطرة على حياتنا، حياتى، هكذا أنهت كلامها.

توهمت بعدها إمكانية السير حتى الحمام وإعادة فعل ما عملته أمها أمام المرآة لترى إن كانت قادرة أن تتحمل ذلك الرعب الذى تركه لها القدر كإرثٍ ما، كإرثٍ ما قاسٍ يجب عليها أن تديره وتبثُّه لكى لا تنسى أصولَها، لتتذكر من حين لآخر، كتدريب للتليين، أن حمّامها - المضىء للغاية والمؤنث كما لو كان حمام فندق فخم- كان قد قام على أنقاض حمام آخر، ذى طلاء مقشر ومهدم مثل حمام بنسيون ما، حيث هناك الأدوات الصحية ليس لها فائدة أخرى سوى استعمالها.

الجزء الثانى

أبدأ هذه الصفحات التى أجهل ماذا سأسميها أو إلى أين ستقودنى وأنا فى عامى الثالث والأربعين، أى بعد قليل من النقطة الوسط من أن تعتبر حياة طويلة جدًا.

حوادث شخصية متعددة ذات تفصيل معقد جعلتنى فى الآونة الأخيرة أواجه إمكانية التحكم بفاعلية فى وجودى. أجدنى فى بداية شىء لا أعرف له تعريفًا، ولكنه يُلَخَّص فى الانطباع بأننى أملك زمام حياتى. من المؤكد أننى أجهل كيف أحكمه ولا أعرف فى أى اتجاه سأستخدمه عندما أتعلم استعماله، كما أنه من المؤكد أن كل هذا سيسبب لى دوارًا ذا تأثير يميل إلى التمركز فى جسدى الذى بدأت تظهر به أعراض مختلفة كانت قد توقفت عندما توقَّف، فجأة، إدمانى للحشيش. ولكن كل هذا يُشكِّل ثمنًا بخسًا إذا ما قارنته بالنفع الذى حصلت عليه، وإن كان مازال لا يُدرك، تمامًا مثل النفع غير الملموس لمغامرة على وشك البدء.

أكتب تلك السطور الأولى من حياتى وأنا جالسة على مقعد مريح من الجلد مضى عليه جزء كبير من وجود أمى. خلف ظهرى، على الحائط، ثمة ساعة بندول، تخص والدتى أيضًا، تقيس الوقت، ولكن ليس الوقت الذى يحدد وجود الناس، بل الذى ينظم ما تستغرقه مغامرتى الداخلية، تحولى. اشتريت مجموعة من كشاكيل صغيرة مترابطة بدبابيس، والتى تشبه إلى حد كبير تلك التى استخدمتها أمى لتنجز يوميات غريبة وناقصة وقعت فى يدى بعد موتها.

حياتى تمضى بسلام بين قراءة يومياتها وكتابة يومياتى. يجب أن أضيف إلى هذا المتعة الغريبة التى أجنيها من بعض التقارير التى أنا نفسى كلفت بها محققًا خاصًا. تعاقدت مع ذلك الشخص، الذى يجهل لصالح من يعمل، ليتتبع الهدف إنريكى، زوجى، ولكن بعد قليل سئمت مغامراته الجنسية وطرقه الاقتصادية الملتوية، حتى أننى فى يوم ما هاتفت الوكالة _فقط نتكلم عبر الهاتف ـ وقلت لها أن تنسى أمر إنريكى أكوستا وأن تركز جهودها على إيلينا رنكون، زوجه، التى هى أنا.

قليلاً جدًا ما أخرج، ولكن يروقنى أن يخبرنى أحدهم بما أفعل عندما أكون بالشارع. على هذا الحال، ليس دائمًا، فى بعض الأيام التى أترك فيها المنزل للتنزه أو للشراء، أحادث الوكالة هاتفيًا وأقول لهم أن يتبعونى. فى اليوم التالى أذهب إلى صندوق

البريد، الذى تعاقدت عليه بالقرب من هنا، وآخذ التقرير الذى يظهر فيه أننى فعلت ما فعلت وليس شيئًا آخر. بما أننى كلفت المحقق بأن يكون ذاتيًا جدًا، فهو يقول أشياء عنى كنت أجهلها، هذا فضلاً عن أنه يسلينى كثيرًا، يعيد بنائى بعض الشىء، ويعمل على إشغالى، ويعيد لى صورة وحدوية وصلبة عن نفسى، فالآن أرى أن جزءًا كبيرًا من حزنى السابق كان يأتى من حقيقة شعورى ككائن مشتت، اهتماماته كانت متناثرة أو معلّقة فى أماكن لم تكن تخصّه. ربما لهذا، من بين أشياء أخرى، لم أستطع أبدًا التوصل إلى تواصل مناسب مع ابنتى، التى مازالت تعتبرنى أمًا باردة وغير قادرة على الوصول لنواة صراعاتها وغير كفء لحبها. لا يهمنى، أنا أيضًا اعتبرت أمى كائنًا غريبًا، ولكنى فى حقيقة الأمر كنت قرينتها. الوقت الذى تشير إليه ساعة البندول، الذى تؤرجحنى دقاته بينما أكتب تلك السطور، سيعيد لكل شخص الأشياء التى أحضرها، واضعًا قطع لغز الحياة فى المكان الذى خَرَجَتْ منه عندما انكسرت صورهم إلى شظايا.

ذهبتُ أمس إلى "الكورت إنجلس"(*)، وهاتفتُ الوكالة لكى يتبعونى. ذلك الصباح أخذت التقرير الذى كان يقول الآتى:

غادرت إيلينا رنكون بوابة منزلها فى خمس وعشرين دقيقة من اليوم المشار إليه للمتابعة التى

(*) سلسلة من المراكز التجارية الكبيرة والشهيرة بإسبانيا.

مازلت أكتب عنها: كانت ترتدى ملابس لا ثقيلة ولا خفيفة، ولكن لم تكن ترتدى جوارب، كانت ملحوظة أمعنتُ النظر فيها، فلقد اعتدت النظر إلى ساقيها حيث لم تحلقهما من زمن بعيد، حتى وصل شعرها إلى طول يوضع فى حد الاعتبار، خاصة الساق اليسرى ولأسبابٍ أجهلها. أعترف أننى قد فكرت أنه من المحتمل أن تكون من سلالة تركية، فلقد سمعت أن نساء ذلك البلد يعجبهن الحفاظ على الشعر الذى منحتهم إياه الطبيعة، على الرغم من أن ظهوره فى تلك المناطق من الجسم يعتبره العالم الغربى شيئًا من العلامات الذكورية.

حسنًا، كنت أقول إننى أمعن النظر فى ساقيها وعند التأكد من أنها لم تكن ترتدى جوارب لاحظت أيضًا أنها قد نزعت شعرها. تجولت، كما لو كان دون وجهة معينة، حتى شارع "خواكين كوستا"، ومن هناك نزلت باتجاه "كاستيانا" دون أن تقوم بأى شىء ذى فائدة خلال ذلك الوقت، وإن كان من المؤكد أنه كان ممكنًا ملاحظة شىء ما من الغرابة فى تصرفها عامة، تصرف خاطئ، كما لو كانت تتوقع احتمالية لقاء غير مرغوب فيه يخضعها لترددات خفيفة فى طريقة مشيها أو فى اختيارها للشوارع التى كان يجب أن تقودها إلى هدفها النهائى: "الكورت إنجلس" الكائن فى "كومبليخو أثكا". عادة، ذلك التقدير ذاتى ولكنه يجب أن يكون كذلك.

فى "الكورت إنجلس" يمكن مراقبتها بأكثر من وضع، فكل تلك المراكز المصممة من أجل أن تستوعب تكدسات كبيرة من البشر تُسهِّل كثيرًا مهمة المتتبِّع فى التخفى بين الناس والتقرب من الشخص المُلاحَق دون إثارة الشبهات.

كما أن المدعوة إيلينا كانت قد نزعت نظارة الشمس عند دخولها للمخازن الكبرى والتى قد كشفت عن عيون، كما هو معروف، تفصح لمن يعرف النظر إليهم، عن نوايا ومخاوف وأمانى، تلك التى لا يعيرها أغلبية الناس عمومًا أى نوع من الاهتمام.

حقيقةً على أن أعترف أننى منذ بضع سنوات عملت دراسة قائمة على طريقة النظر فى خمس قضايا جنائية مشهورة، واكتشفت الكثير من النقاط المشتركة بين تلك النظرات غير الواضحة التى نالت الفرصة الغريبة لتكون فى حضور جريمة ما فعلها أصحاب تلك العيون. لذا فإننى أتكلم عن الموضوع عن خبرة.

رأيت فى نظرة إيلينا رنكون عدم الوضوح المميز لمن هو على وشك أن يقوم بعمل مخالف لضميره أو ضمير من يحيطون به. من المؤكد أن غور عينيها، لسبب ما، ربما بسبب الطبيعة التجميلية، كانت قد خف بطريقة ملحوظة، ولكن عينيها لديها قابلية لحركة كانت تفتقرها من قبل. فكرت أنها ربما تعانى من ذلك الميل المرضى لسرقة الأشياء المعروضة للعامة

فى محلات من هذا النوع، فمن المؤكد أن جنون السرقة (مثل الميل المُفرط لبعض ألعاب الميسر مثل البينجو)(*) يشكل مرضًا منتشرًا جدا بين نساء فى وضعها. ولكن على الرغم من أننى اقتربت منها أكثر من المفروض، لم أرها تُدخِل أى شىء فى حقيبتها.

ذهبتْ بعدها إلى قسم البياضات، وفقدتُ أثرها فى ثلاث مرات كانت تستخدم فيها غرفة القياس مع قطع مختلفة من ملابس. من جهة أخرى، اضطررت أن أكون بعيدًا، فليس من الشائع وجود رجال فى مثل تلك المناطق من المراكز التجارية الكبيرة. لو كانت إيلينا رنكون تشك، وهذا أمر أجهله، فى أنها خاضعة للمراقبة، كان يكفى أن تلاحظ وجودى فى مكانين مختلفين لتكشف أمرى كتحرٍ. يجب علىَّ إذًا أن أبقى خارج نطاقها البصرى كلما أمكننى هذا.

ومع ذلك، ليس من المرجح أن تسرق أيًا من تلك الملابس الداخلية، فبالإضافة إلى أنها ممغنطة (وهو ما يجعل الإنذار يعمل عند العبور بها بجانب بعض وحدات سيطرة معينة) كان عادة ما تراقب الملابس بعض الآنسات البائعات الموجودات بشكلٍ استراتيجى عند مدخل غرف القياس.

خرجت أخيرًا إيلينا رنكون من المركز التجارى دون أن تكون قد ابتاعت أى منتج، مما يغلفها تمامًا،

(*) نوع من أنواع ألعاب الميسر تعتمد على الأرقام، يفوز فيها من تتطابق معه الأرقام التى فى ورقته مع تلك التى يسمعها عبر الميكروفون.

بالإضافة إلى سلوكها العام المشار إليه سابقًا، بشكوك من المؤكد أنها تفتقر إلى اتجاه فى الوقت الحالى. انتهيت إلى التفكير فى أن زياراتها للمخازن الكبرى من المحتمل أن تربطها بمحل له صلة ما مستترة مرتبطة بالجزء الخفى من أعمال زوجها، صلة، لأى أسباب كانت، لم تستطع أن تقوم بها فى مساء يوم ملاحقتى لها. مع أنه لا يمكن أن يستبعد إمكانية أن الهدف النهائى من تحركاتها مرتبط بأخذ أو تسليم مخدرات أو مال أتى عن طريق بيع المخدرات. لا غرو أن أعمالاً من ذلك النوع الذى يديره إنريكى أكوستا أُستُخدمت لغسيل أموال حصل عليها فى تلك الطبقة ذات الاقتصاديات السرية.

التأكد من تلك الأشياء، لو اعتبرها عميلى شيئًا ضروريًا، سيتطلب عمل متابعة أقل تشتيتًا من تلك المتابعة الحالية، وربما نوع ما من تحقيق مُكَمِّل، ولكن بسبب تعقيده، سيتطلب الأمر الحصول على مال أكثر من ذلك المتفق عليه للمراقبة فقط.

ختمت المتابعة فى تمام الساعة الثامنة والربع. حيث عادت المدعوة إيلينا سيرًا على الأقدام من جديد إلى منزلها دون أن تكون قد أسفرت تلك المسافة عن أى شىء يذكر، عدا تصرف البحث ذلك، المشار إليه سابقًا، الذى من الممكن أن يندرج أيضًا تحت شكّها فى أنها خاضعة للمراقبة. زاد هذا من مخاوفى وحوّل تلك المهمة، التى تبدو ظاهريًا روتينية وبسيطة، إلى عمل ملىء بصعوبات صغيرة ولكن كثيرة.

على الرغم من صرامة أهدافى، لى أيام لم ألجأ فيها إلى تسجيل تلك اليوميات وهذا يعطينى الشعور الغريب بعدم الوجود. هل كان ليحدث نفس الشىء لأمى؟ فكرة اليوميات منذ أن بدأتها، تملكتنى كهاجس مُلِحّ. أعلم أن يوميات من هذا النوع هى جزء من خريطة مجملة ترتبط فيها الأوجه الأكثر بروزًا من الحياة الشخصية. إلا أنه، فى مخيلتى، اليوميات هى الحياة نفسها. قرأت ذات مرة شيئًا قريبًا عن الناس الذين يخلطون بين الأرض وذلك الشىء الممثل للأرض (الخريطة)، ربما كان هذا هو ما يحدث لى، ربما لهذا لدى الانطباع بعدم الوجود تلك الأيام الماضية.

ولكن لم يكن الأمر كذلك. لقد عشت جحيمًا أريد الخروج منه، ولكنه يقبض على جزء منى لا أملكه. بعد تشاؤم السطور الأولى لتلك اليوميات، التى عبرت فيها عن الشعور الغريب والظريف من تملكى لزمام أمور حياتى، وصلت إلى توازن مؤقت تكسر إلى قطع منذ حوالى ستة أو سبعة أيام. كان إنريكى قد

خرج إلى العشاء، ومكثتُ أنا مستيقظة لمشاهدة فيلم ما كانوا يعرضونه على شاشة التليفزيون. فى الاستراحة، وبما أن الفيلم كان يعجبنى كثيرًا، اقترفت خطأً بلفى سيجارة محشوة للاستمتاع أكثر بالفيلم. فى البداية كان كل شىء على ما يرام؛ الفيلم بدأ يكتسب أبعادًا خاصة واستمتعتُ بذلك الإحساس بالكمال العقلى الذى يفعله الحشيش بعد مدة من الانقطاع عن تناوله. إلا أنه، بعد فترة وجيزة، ربما بسبب وضعية الجلوس، بدأت أشعر بضغط شديد فى صدرى. عزوته لتجمع مفرط من الغازات فى منطقة الحجاب الحاجز، ولكن غيرت من وضعية جلوسى دون أن يخفف ذلك من الضغط، وفى الحال زادت شدته بسبب الخوف من أن أظل بلا هواء. خرجت إلى الشرفة وتنفست وفمى مفتوح، ولكن الهواء كان ذا كثافة رطبة وحلوة إلى درجة الإبشام مما صعب طريقه خلال الشعب الرئوية. كنت أتنفس كما لو كانت رئتاى قد ذابتا وأصبحت لحظاتى فى الدنيا معدودة.

دون أن أنتبه إلى أننى انتهيت من تدخين سيجارة ملفوفة، لجأت إلى دواء مريح للأعصاب ليهدئنى، بعد قليل توقعت أن الضغط سينتهى بإغماءة ما. لحسن الحظ كان لدى وقت حتى أصل إلى غرفة النوم، حيث سقطت فوق الفراش لبضع دقائق قبل أن أفقد الوعى. استيقظت بعد ساعتين غارقة فى عرقى مع نوبة مرض مؤلمة فى الأمعاء. لم يكن إنريكى قد عاد بعد، وكانوا فى التليفزيون، الذى كنت قد تركته

مفتوحًا، يعرضون فيلمًا فى نسخته الأصلية. ذهبت إلى الحمام، ولكن لم أستطع أن أفرغ معدتى. تذكرت حينئذٍ أن أمى، فى يومياتها، كانت تشير إلى ذلك الوضعَ عندما لا يُستطاع أن يُطرد ما فى الداخل باسم القولون المغلق، وشككت أنه ربما يكون هو نفسه ما كان يحدث لى. كان يكفى تسمية المرض ليخف بعض الشىء، وعلى هذا الأساس استطعت أن أصل إلى الصالون لأغلق التليفزيون وبوابة الشرفة. تعريت بعدها ودخلت فى السرير بإحساس بالهجر لا يطاق. فكرت فى مرسدس ابنتى، وفى إنريكى زوجى، كما لو كانا جزأين من وجودى منفصلين تمامًا عنه. كانت حياتى تبدو مبتورة وبلا فائدة. أعتقد أننى خلال العشرين سنة الأخيرة دافعت عن نفسى ضد العواطف دون أن أفكر أن كل واحدة من تلك الدِّفاعات كانت تعنى بترًا ما. نال الحزن منى فى مكانٍ ما ولكن لم أصل إلى حد البكاء. أضأت النور حينها، وأخذت واحدًا من كشاكيل أمى ووجدت مقطعًا أثّر فىَّ عاطفيًا بشكل خاص؛ بدا وكأنه مكتوب لأجلى ومن أجل تلك الليلة، لأنه كان يقول الآتى:

كُتِبَ الكثير عن الجسم البشرى دون أن نعرف بذلك كل ما حول أصله أو آلياته. هناك من يشك بين تعريفه كقارة أو كجزيرة، وهذا يرجع إلى أنه يحتوى على التعقيدات القاريّة ووحدة الجزر. الجسم أقدم من أن نستطيع مقارنته بقارة ما موجودة استطاعت أن تنجو من العصر الجليدى، ومن الزلازل، ومن

الانفجارات الداخلية حيث تركوها غير ذات جدوى لأى شىء، إلا من أجل الوظائف الآلية التى تكررها القارة دون شغف. نظرت إلى جسدى، عاريًا فوق الفراش، وماذا رأيت: سطح عدائى مدمَّر باتجاه المعدة، هناك بالأسفل، بين الساقين، لاحظت مجموعة من العشب من أسفله يوجد فتحة مخفية، مغارة تؤدى أحيانًا إلى المتعة، وأحيانًا إلى الألم ودائمًا إلى اليأس. بالقرب من النظر، ثمة واحدة من المناطق المهجورة فى القارة، التى نسميها الصدر. صدرى مسكون بورم سرى يشفط واحدة من الحلمات إلى داخل نفسه. لم أقل لأحد بعد. ولو حفرنا، لو وجدنا لأنفسنا طريقًا إلى داخل ذلك الجسد، كنا لنكتشف بضعة أعضاء قديمة أيضًا ومتخصصة جدًا، كان يكفى للغاية أن يفشل أحدها فى عمله لكى يتلاشوا جميعًا. لمن تلك القارة؟ من يسكنها؟ يسكنها الألم والأشباح والخوف، ولكن أيضًا تسكنها الأحشاء التى تجعلها أكثر تعقيدًا وانعزالا.

بعد قراءة ذلك المقطع، حفظت الكشكول فى درج الكومودينو، وأشعلت سيجارة كانت ذات طعم جيد. هذا هو الجسد الذى، مثل وجهى، كان يشبه كثيرًا جسد أمى. التقلصات الأمعائية توقفت، وأخذت أستريح حتى غلبنى النوم. لم أسمع إنريكى عندما عاد.

فى اليوم التالى، بدا القولون المغلق وكأنه ينفتح، وأفرغت ما بداخلى دون عناء. أمعائى لها بضعة أشهر

تتصرف على هذا النحو: إمّا أن تنحبس أو تنفجر. ولكنها حتى عندما تنفجر تبدو كأنها تركت شيئًا ما بالداخل. وصل بى التفكير إلى أنه ربما لدى ورم أو قرحة _غرابة معوية ما والسلام _تعطى جسدى هذا الإحساس غير المريح بوجود عنصر غريب بداخله.

فيما يتعلق بإنريكى، زوجى، أعتقد أنه بدأ ينظر لى بشكلٍ آخر، كما لو كان قد انتبه إلى التحول الباطنى الذى أعانى منه والذى لا أعرف له مسمّى. لا أعتقد أنه قلق، فهو يحيا حياة شخصية صاخبة جدًا ربما لا تسمح له بالاهتمام بتلك الأحداث ذات الطابع المنزلى. لا أريد بهذا أن أقول إنه لا يشعر بأى شىء تجاهى، ولكن أظن أن عواطفه موجودة بأماكن أخرى (عمله، عشيقاته، ابنتنا) وليس ثمة مكانٌ كبير ليسعنى فى ذلك الموضوع. ولا أنا، وهذا مؤكد، اهتممت كثيرًا لأمره فى السنوات الأخيرة، وهذا انتهى برسم نوع ما من علاقة غريبة، علاقة ليست مزعجة، ولكن ليست ذات جدوى كدعمٍ فى اللحظات الحاسمة من الحياة. على الرغم من أننا لم نتكلم أبدًا عن هذا، ولكننى أعتقد أنه ينتظر بأملٍ أن تكون مرسدس، ابنتنا، حاملاً.

منذ أن بدأ الجو يعتدل اعتدت على الاستيقاظ مبكرًا وأحيانًا نفطر معًا، الطبيعى ألا نتحدث أو نتحدث فى مسائل عملية، ولكنه أحيانًا يحاول أن يتطرق بدفة الحديث إلى مواضيع مختلفة ليرى إن كان يستطيع أن يكتشف سرى. فى يومٍ ما عرض علىّ

القيام برحلة ما، ولكن لم أرد عليه لا بالسلب ولا بالإيجاب، دائمًا عندما يدنو الصيف يصبح عصبيًا بعض الشيء، حيث يشعر بإلزامية التخطيط لأشياء لا تهمه. أعتقد أنه يود أن يصيف مع مرسدس وزوجها، ولهذا فإن وجودى يشكل مشكلة فى تلك الأوقات. قلت له:

مازال أمامنا شهران على قدوم الصيف.

- الأمر أننى أخشى ألاّ أتمكن أن أحصل على إجازة ولو لمدة أسبوع واحد، لذلك أعرض عليك أن تقومى برحلة ما الآن.

- لا تقلق، ليس بى رغبة شديدة للسفر ذلك العام.

- على كل حال الرحلة التى كنت أشير إليها يتعين على أن أقوم بها لأسباب تتعلق بالعمل. لو أتيت معى نستطيع أن نستريح - نحن الاثنين - بعض الشىء.

- لا أعرف، إلى أين هى؟

إلى "بروكسل"، أريد أن أحل بعض الأمور، ولكن سيكون لدى وقت لأقوم بنزهات. نستطيع أن نذهب إلى "بروج" و"أنتورب" وهولندا. فالهواء سيكون الآن طيبًا وإن كان رطبًا.

- لا أعرف، دعنى أفكر فى الأمر.

سألته فيما بعد عمّا الذى كان يتعين عليه فعله هناك، ولكن لم أستطع الفهم. الأمر يتعلق بأخذ أو

تسليم بعض العمولات، الأمر برمته كان يبدو غير واضح، بشكل جعلنى لا أستطيع التحكم فى دفعة عدائية. قلت:

- من القليل الذى أقرؤه فى الجرائد والذى أسمعه منك، أعتقد أن الفساد أصبح يشكل جزءًا من النظام.

- لم يتأثر. بلل الخبز المحمص فى القهوة وقضمه ولاكه ببطء ثم قال:

- الذى تسمينه فسادًا يشكل جزءًا من كل الأنظمة، كلها. بل أكثر من ذلك، لو لم يكن الفساد موجودًا، ما عملت الأنظمة. المهم هو معرفة بأى جزء من النظام يوجد الفساد، والتحكم فيه لكى لا ينمو أكثر مما تستطيع كل مؤسسة أن تتحمله. ولكن بصفة عامة، وانطلاقًا من مستويات معروفة من المسئولية، الفساد ليس فقط أمرًا غير سيئ بل إنه أمر مرغوب فيه. التفكير فى العكس، على أحسن تقدير، هو سذاجة.

تأكيده لم يصعقنى لأننى فكرت فى جسدى، فهو فى الأول والآخر نظام ما، واضطررت إلى أن أسلم بأنه بفضل فساد العناصر، الكائن فى الجهاز الهضمى، نستطيع أن نتحرك وننمو، إلا أننا نموت أيضًا. فكرت بعدها فى المرض، خاصة مرض أمى، الذى احتفظت به كَسِرٍّ طوال أعوام طويلة جاعلة أبى يعيش، حيث كان يبدو فى منتهى الصحة. ذلك

الفساد، الكائن بصدرها، ربما أنقذها من مرض آخر أشد قوة. قرأت فى مكان ما أن جسد مريض بشكل مناسب، مثله مثل مجتمع فاسد بشكل مناسب (مثلما قال إنريكى)، يجنب الجسد اقتحامات طفيلية ذات أهمية كبيرة. لا أعرف.

منذ بضعة أيام أخذت سيارة أجرة وقال لى السائق إنه قد فقد ذاكرته، ولكن ليس ذاكرته الخاصة بالأماكن أو بعائلته وإنما ذاكرته الخاصة به هو نفسه. قال لى:

ـ أعرف أننى كنت طفلاً، مثل الجميع، ومراهقًا وشابًا، ولكننى لا أتذكر كيف كنت ولا كيف كنت أفكر فى الحياة وقتها.

ـ وبماذا تفكر حاليًا؟

ليس الأمر حاليا أننى لا أتذكر ولكن الأمر هو أننى ليس لى رأى. إننى أمر بوقت عصيب وحضراتكم ـ الزبائن ـ تساعدوننى كثيرًا، لأن الكلام يحررنى من الأشياء التى تمر برأسى. لى خمسة عشر يوما أفضل حالاً، ولكن كنت قبلاً أوقف السيارة فى أى مكان، وأبكى من اليأس. دائمًا ما كنت أذهب بربطة العنق مجعدة وكنت أتنفس بشكلٍ سيئ، كما لو كان ينقصنى واحدة من رئتىّ. فى التأمين الصحى أعطونى بعض الأدوية التى تجعلنى أنام، ولكنى على الأقل أتنفس بشكلٍ آخر.

في أحد الأيام، أخيرًا، ذهبت إلى المقبرة، ودعوت المحقق ليتبعني. كان باستطاعتي أن أحكي ما فعلت، ولكني أظن أن لو حكاه هو في تقريره أفضل، وهكذا أتلو التقرير:

غادرت إيلينا رنكون منزلها في الحادية عشرة والنصف من يوم ١٨ الثلاثاء الماضي. كان الطقس تقريبًا صيفيًا، مما جعلها ترتدي فستانًا خفيفًا بعض الشيء بدرجات الأصفر ومفتوحًا عند أول خط الصدر. دخلت إلى مقهى قريب من منزلها، وتناولت قهوة على البار بينما كانت تدخن سيجارة. شكلها العام كان قد تحسن: غور عينيها قل (على الرغم من أنها مازالت ترتدي نظارة الشمس في الشارع) وأصبحت مهندمة أكثر من ذي قبل. أريد أن أقول إنها أصبحت تصبغ شفتيها بعض الشيء، وأصبحت أكثر عناية بشعرها. في مثل سنها الشعر المسترسل ليس من المعتاد أن يكون في مظهر جيد، إلا أنه معها يبدو وكأنه يستحضر غموضًا ما. إنه لأمر غريب، ولكن

حتى الآن كنت أرى تلك المرأة كهدف بسيط لمتابعة مهنية، وفجأة، بدأت أشعر بأننى أكتسب شخصية فردية لم تكن عندى من قبل.

ما حدث بعد ذلك هو أنها قد استقلت سيارة أجرة (لديها سيارة ولكنها لا تستخدمها أبدًا تقريبًا) وذهبت مباشرة إلى المقبرة. تمشت دون سرعة بين طرق قبور مشمسة، ووقفت أخيرًا أمام مدفنين حيث فيهما، طبقًا لما أمكننى التقصى عنه بعد ذلك، يرقد رفات والديها. ظلت هناك ما يقرب من عشر إلى خمس عشرة دقيقة، وبعدها استدارت وعادت سيرًا على الأقدام نحو بوابة الخروج. كانت لدى بعض الصعوبات للتخفىّ، فالموضوع كان عبارة عن مكان غير مأهول إلى حدٍ ما، وليس من المعتاد أن يعج بالتكدسات البشرية.

استقلت سيارة أجرة أخرى تركتها بالقرب من منزلها وتجولت فى الشارع شاخصة ببصرها نحو واجهات المحلات. فى تقرير سابق عبرتُ عن احتمالية أن تكون إيلينا رنكون تؤدى دورًا كمساعدة لزوجها فى شىء ما من الأعمال المشبوهة لذلك الأخير، إلا أننى بدأت أفكر أن الأمر لا يتعدى كونها امرأة وحيدة وضجرة، تخرج إلى الشارع لتهرب من الاختناق المنزلى. لم يكن فى تصرفها أى شىء يدعو إلى احتمالية أخرى، ومع ذلك فمن المؤكد أنه أيضًا كان تصرفًا يشوبه الغرابة، فلم تشتر أى شىء، ولم تر أحدًا ولم تذهب إلى أى مكان محدد، إذا استثنينا

الزيارة الخاطفة للمقبرة. قبل أن تصعد إلى الشقة، تناولت "مزّة" فى حانة ما وكان هذا كل شىء.

التقرير موجز للغاية لأننى فعلاً لم أفعل شيئًا يستحق الذكر. مشيت لوقت طويل من أجله، لأحللِ المال الذى أودعه إياه وأيضًا لأنه من الجميل أن تتحرك بالشوارع وأنت تعلم أن هناك من هو مخصص ليتبعك. أظن أنه إذا أغمى على فى واحدة من تلك المرات سيأتى محققى ليأخذنى وسيكون مسئولاً عنى إلى أن يمر كل شىء بسلام. حاولت أن أراه لأرى إن كان يطابق وهمى ولكنه يتخفى جيدًا للغاية. فى المقبرة أدرت رأسى مرتين أو ثلاثة ولم أر أحدًا بدا يتبعنى.

من جهة أخرى، وبما أنه فى هذا التقرير كان يبدو وكأنه قد بدل رأيه بعض الشىء فىّ، حادثته هاتفيًا. شكوت:

- تقريركم الأخير كان موجزًا للغاية.

- أنا مدرك ذلك، ولكن الموضوع لم يفض إلى أكثر من ذلك. لقد فعلت بالضبط ما قلت إنها فعلت.

لقد لاحظنا أن سيادتك قد بدأت تنجذب إلى تلك المرأة؛ تتكلم عنها بشكلٍ مختلف.

ظل للحظة فى صمت، ولكن رد فى الحال:

- ممكن. من السهل أن تتضامن مع امرأة بهذا الشكل، خاصة إذا فكرنا فى نوعية الزوج الذى لديها. الحقيقة أننى لا أعتقد أنها تربطها أية علاقة بأعمال

إنريكى أكوستا. أظن بمعنى أصح أنها تعيش مهمشة من الكل فهى لا ترى ولا حتى ابنتها.

- لا تثق فى ذلك، فهؤلاء الأشخاص لديهم الكثير من المفاجآت.

- هل سيتوجب على عمل متابعة أخرى؟

سألها بصوت ليس من الصعب أن تخمن فيه الرجاء. ردت إيلينا :

- حاليًا، لا. سأكون على صلة مع حضرتك.

هذا المحقق يبدو أنه لديه درجة من رقة الشعور لم أكن أتخيلها أبدًا من قبل فى وظيفة مثل تلك التى يشغلها. تأملت الوحدة التى ينسبها إلىَّ وهذا جعلنى أفكر أن حياتى فعلاً، بنظرة بسيطة، تفتقر إلى نقاط وصل. زوجى وبقية الناس الذين أعرفهم يعتمدون على مسلسل من الأشياء - التى يحتفظون عن طريقها بعلاقة من التشابه - التى تؤكد بشكلٍ دائم من يكونون هم. ما الذى أملكه أنا يؤكد ما كنته وما أكونه الآن، إن كنت شيئًا؟ لدى تلك اليوميات والحشيش الذى أعمل على عدم تدخينه، وربما أيضًا الساعة والمقعد. ماذا هناك أيضًا؟ لدى أمى التى، بعد موتها، سكنت منطقة من جسدى كائنًا فى نقطة ما فى جهازى الهضمى. كنت سأستطيع التحدث أيضًا - على أن ذلك يجعلنى أضحك بعض الشىء - عن قرينتى، التى من المحتمل أنها تدعى إيلينا وابنة لقرينة والدتى.

لم تكن هى أيضًا لديها الكثير من نقاط الوصل: الكحول واليوميات والورم. ماذا كانت لتفعل مع ورمها فى ليالى الأرق؟ بأى شكل كانت لتتصل معه؟ أفتح الآن واحدة من يومياتها وأقرأ كالعادة بالحظ:

من بين كل الفواكه المُرّة للحياة، الموت بعيدًا عن أن يكون أسوأها. السيئ هو أن تعيش بعيدًا عن نفسك ذاتها، وهذا ما أحياه أنا منذ سنوات، منذ أن انتقلت للعيش فى تلك المدينة التى ليس لها وجود والتى، مع ذلك، تدعى مدريد. مدريد ليس لها وجود، فهى حلم ناتج عن مرضٍ ما، عن أدوية نتناولها لمكافحة مرضٍ ما. كلنا الكائنون فى مدريد غير موجودين. هذا لا يحول بيننا وبين أن نسير وأن نشترى فاكهة وأن نفتح دفتر توفير. أمس نزلت إلى شارع "لويث دى أويوس" وأخذت جولة بشارع "مارثادو"، ذى الرصيف المقبب جلده كما لو كان يعانى من نوع ما من الحساسية. أنا عندى نوعان من الحساسية ليسا مزعجين للغاية، ولكن على الرغم من ذلك، أبرمت معهما معاهدة، والآن نحن بخير. ولكن لا يذهب عنى طعم الفم الكريه وها قد فقدت شهيتى وتذوقى للأكل؛ لأن طعم الأكل أصبح سيئًا بالنسبة لى. بسبب تلك الأشياء الموجودة بجسدى بدأت أهمل المنزل بعض الشىء وهذا يقلقنى. لى خمسة عشر يومًا دون أن أنظف قيشانى الحمام وأحيانًا أظن أن تطور ورمى متوقفٌ على حالة المنزل. إذا كان المنزل قذرًا، ينمو الورم. ولكن عندما أنظفه، يبدو الورم

وكأنما قل حجمًا. قرأت فى "موسوعة للعادات الجيدة" أن بعض السيدات كن يبدأن فى عدم الاعتناء بالمسكن وينتهى بهن الأمر إلى الشوارع، يبحثن عن رجال لا يعرفونهم ليدخلن معهم فى فنادق خفية وقذرة. ولهذا أردت أن أنقل لبناتى، وبالأخص إيلينا ، متعة المنزل، ولكن أعتقد أننى لم أفلح.

عن إيلينا أتذكر أنها عندما كانت صغيرة قصت علىَّ حلمًا ما. كانت قد حلمت أننا كنا على الشاطئ وأنها كانت تصنع حفرًا فى الرمال حيث وجدت فى إحداها عملة ما. لم تكن تجهل أنها كانت داخل حلم ما، ولكن العملة كانت لها من المتانة والواقعية ما جعلها تفكر أنها إذا كانت قد ضغطت عليها بشدة فى اليد اليمنى كانت لتجدها عندما تستيقظ. لم تجدها بالطبع. لذلك، فى نفس ذلك الصباح، عندما نزلنا إلى الشاطئ، خبأتُ عملة فى الرمال وقلت لابنتى لماذا لا تحفرين هناك؟ من المحتمل أن تجدى عملة الحلم. حفرت ووجدتها وجلست فزعة. يا للحياة. الآن سأذهب لأنظف قيشانى الحمام لأننى سأتكاسل فيما بعد.

بعد قراءة تلك الحلقة، نهضت عن مقعد أمى وذهبت إلى الشرفة. بما أننى أعيش فى طابق علوى، رأيت المدينة كمن يتأمل جسدًا ممدودًا. تلك المدينة هى جسد مرئى، ولكن الرؤية ليست بالضرورة أن تكون سمة لما هو حقيقى. ربما ليس لها وجود ولا نحن لنا وجود، على نهج عدم وجود ذلك الكنز الذى وجدته

فى الشاطئ. مازلت لا أعرف إن كان هذا الاكتشاف يجب أن يحزننى أم يثيرنى، فلو كان حقيقيًا أن تلك اللقْيَة تشكل كذبة ما، فليس أقل منها حقيقة أن واحدًا قد حققت له أمه حلمًا ما بهذا الحجم يكون مضطرًا إلى أن يبحث عن مصير مختلف.

كل يوم، عندما أنظم غرفة النوم، أرى فى المنزل المواجه سيدة تطل من النافذة لتنظف بغيظ حافة النافذة. صعب على الفهم، ولكنها تفعل ذلك الحدث السخيف كل يوم فى نفس الساعة، كما لو كانت حياتها تتوقف عليه. من المؤكد أن الحياة تتوقف عليه، ربما لأنها تظن أنها إذا تركت نفسها للكسل سينتهى بها الأمر إلى النزول إلى الشارع بحثًا عن رجال لا تعرفهم. أنا أيضًا عانيت من هواجس من ذلك النوع، ولكننى انفصلت عنها، على الرغم من تصميم أمى. وعند انفصالى عنها ربما ظللت بلا هوية؛ لأنه فى كل تلك الطقوس التنظيفية كانت تقبع إمكانية أن أكون أنا نفسى. ولكن لم تنقل لى أمى هذا فقط، لأنها فى الوقت نفسه حققت حلمًا ما فى طفولتى وجهزتنى بقرينة فى الناحية الأخرى من العالم مترددة، مثلى، بين تبنِّى ما يسمونه واقعًا أو عمل واقع شخصى للعيش فيه. بمعنى آخر، أمى أرتنى الممر الضيق والغرف الزهيدة التى كان ليتوجب علىَّ أن أمضى فيها وجودى، ولكن فى الوقت نفسه أعطتنى عالمًا لأتحمل هذا المعزل أو لجعله ينفجر إلى ألف قطعة. أعطتنى كل الجيد وكل السيئ فى الوقت نفسه

ومختلطًا بشكل محير، لكنها تركتْ لى مقعدها وساعتها: المقعد لكى أجلس عليه للتخلص من هذا الخلط؛ والساعة لأقيس بها إيقاع التحول.

إنها الثانية عشرة. تناولت قهوة جعلتنى بحالة سيئة، والآن عندى غثيان. سأذهب لأرتب المطبخ بعض الشىء.

لى عدة أيام دون أن أدخن الحشيش، والحقيقة بدأت تُظهر أبعاد غريبة جدًا. أثاث منزلى، الذى عادة يفتقر إلى التجسيم، اكتسب شيئًا من التجسيم المزعج بعض الشىء. أريد أن أقول إننى ارتبطت به وبباقى المسكن كما لو كنت إنسانًا غريبًا عن تلك الأماكن. كنت أحتاج إلى الحشيش من قبل للوصول إلى تلك الغرابة، ولكن منذ أن استغنيت عنه أخذ شىء ما يتبدل تدريجيًا فى داخلى. أتأمل الصالون وأتعرف فقط على شيئين كأشياء تخصنى: المقعد والساعة. إنه كما لو أن الحظ وضعنا هنا بشكل مؤقت، كما لو كان ذلك المنزل محطة انتظار اضطررنا إلى البقاء فيها حتى نتأهل لشغل مكاننا السرمدى. فى بعض الأيام أجدنى أقلب فى الدواليب وفى باطن الأثاث بفضول طفيلى ما. من جهة أخرى، وأيضًا منذ أن أقلعت عن التدخين مرة أخرى ازدادت أحلامى. أحلم كثيرًا وبحدة غريبة، ولكنى أشعر بخير. يبدو أن الأحلام التى أستطيع أن أتذكرها، حتى عندما تحتوى

على عنصر مؤلم، تنظم مساحة ما غير مرئية، يسكن فيها جزءٌ منى.

هذه الغرابة وصلت أيضًا إلى إنريكى، زوجى، الذى أتأمله كمُضيف ظريف وإن كان غريبًا. كما لو كنت أعيش فى منزل ليس منزلى ومع شخص ليس زوجى. قول ذلك ـ وبالأحرى كتابته ـ يسبب لى شيئًا من الانزعاج، لأنه القبول بأننى لا أنتمى لأحدٍ، ولا لشىءٍ، ولا ثمة شىء ينتمى إلىّ، عدا الساعة والمقعد. قلل هذا من شأنى وجعله مثل شأن شبحٍ ما، ربما كان شبح والدتى الذى يقاوم أن يترك العالم بالكامل ممسكًا من خلالى بأكثر الأشياء المادية التى ارتبط بها فى الدنيا. هذه يجب أن تكون الوحدة، التى تكلمنا وقرأنا عنها كثيرًا دون أن نصل حتى إلى معرفة ماذا كانت أبعادها الأخلاقية. حسنًا، الوحدة كانت هذا: أن تجد نفسك فجأة فى العالم كما لو أنك قد انتهيت لتوك من المجىء من كوكب آخر لا تعرف لماذا طردت منه. سمحوا لك بإحضار شيئين (فى حالتى، المقعد والساعة) يجب أن تحملهما على عاتقك، كلعنةٍ ما، حتى تجد مكانًا تصلح فيه حياتك انطلاقًا من تلك الأشياء، والذاكرة المشوشة عن العالم الذى أتيت منه. الوحدة هى عملية بتر ما غير مرئية، ولكنها فعالة جدًا كما لو كانوا ينزعون عنك البصر والسمع، هكذا هو الأمر، فى معزل عن كل الحواس الخارجية، وعن كل نقاط الصلة، وفقط مع اللمس والذاكرة يتوجب عليك أن تعيد بناء العالم، العالم الذى يجب أن تسكنه

والذى يسكنك. ماذا كان فى ذلك من أدب وماذا كان فيه من متعة؟ لماذا كان يعجبنا كثيرًا؟

على هذا الحال صببت لى بعضًا من الويسكى بهدف تشويش الحواس، فعند إعادة قراءة السطور الأخيرة عن الوحدة شعرت بالخوف، وربما بشىء ما من الشفقة على نفسى. فلنتخيل شخصًا لا يستطيع أن يرى نفسه من الخوف الذى يعطيه لنفسه، وأنه يهرب من نفسه بشكل دائم، كمن يجرى بهدف أن ينحل عن ظلّه.

رأيت أخى منذ يومين أو ثلاثة. هاتفته لأتأكد أن كان حقًا موجودًا، وإن كان قادرًا على التعرف علىّ، جاعلةً لنفسى مكانًا فى حبكة الروابط والاهتمامات المرتبطة بالإنسانية.

كان موجودًا وتعرف علىّ. أخذت ميعادًا على الغداء معه وتواعدنا فى آخر النهار، فى شرفة أحد المقاهى الموجودة بالقرب من المنزل: نبهت المحقق ليلاحقنى.

تناولت أنا قهوة، وطلب خوان شايًا بالليمون. كان يراقبنى بشىء من القلق، كما لو كان يحدث لى شىء ما، أو ربما بخوف، كما لو كان لديه مسئولية ما حول حياتى. سألنى فى التو:

- لست بخير، أليس كذلك؟

أجبته محاولة أن أكون صريحة ولكن هادئة.

ـ الأمر ليس كذلك، لا لأننى لست بخير، بل الأمر أننى غريبة. إذا نظرت إلىّ من الخارج، آخذًا فى اعتبارك المعلومات الخارجية فقط، لتوجب عليك القول أن الأشياء تسير بعقل، ولكن الأمر أننى لا أشعر بأننى يربطنى علاقة بها. أنا وإنريكى لنا وقت طويل متباعدان عن بعضنا البعض، وفيما يتعلق بابنتى، ماذا أحكى لك. أعتقد أننى كنت أمًا باردة وأننى الآن أدفع الثمن. فى وقت آخر كانت لدى اهتماماتى العملية والسياسية، ولكننى أخذت أتراجع عن هذا بشكل غير محسوس. أخيرًا، كلنا لنا عالم ما مرتبطون به، عالمى يبدو أنه سقط دون جلبة حيث إنه عندما انتبهت لما حدث، لم أكن أستطيع أن أدعم أى شىء بعد.

أعتقد أننى وضعت خوان فى موقف عدائى. فلقد أخذ وضعية غير مبالية بشكل مبالغ فيه، كما لو أنه أراد أن يؤكد على أن حكايتى لا تعنيه، وأنه كان فقط مستعدًا للتكلم عنها بنفس العاطفة التى تسمح بها دردشة عن الطقس. مع ذلك، لم يستطع أن يحتفظ بتلك الحيادية طوال الوقت. قال:

ـ أنا لم أفهمك أبدًا جيدًا يا إيلينا. ولا زوجك أيضًا. ومع ذلك، أذكر أنه فى وقت ما كنتما بالنسبة لى فى غاية المثالية. كنتما تمثلان أقصى ما يمكن أن يكون فى هذه الحياة. أنا أتكلم عن سنوات بعيدة، عندما كانوا فى المنزل ينتقدونكما لدخولكما فى أشياء سياسية. حسنًا، سيكون من الأفضل ألا أتكلم عن هذا. لكن، انظرى، أنا لا أفهمك، حقًا. لقد حصلت

دائمًا على ما ابتغيته: فى الشباب الثورة، والآن المال. ممَّ تشتكين؟

فاجأتنى عدائية أخى. المرء لا يعرف أبدًا ما الذى يمثله للآخرين، ولا بأية وسيلة مجانية ممكن أن يكسب أو يخسر عاطفة ما. على أى حال، كان يبدو وكأنه يؤكد إحساسى بالبعد عن العالم، وحدتى. تأخرت قليلاً فى الرد ثم قلت:

هذه ليست شكوى يا خوان. إنه حقيقى أن الأشياء لم تعد تثير اهتمامى، وأنا لم يكن لى أى دخل فى ذلك. أشعر أننى وحيدة وكنت أعتقد أننى أستطيع إخبارك. لا تخف، لن أطلب منك شيئًا.

الأمر أننى لا أفهم ما معنى الشعور بالوحدة، ولا معنى أن الأشياء قد فقدت اهتمامها بالنسبة لك؛ لأننى لم أصل إلى وضعك الاقتصادى، وليس لدى تلك الكمية من وقت الفراغ الذى تملكينه أنتِ. أعتقد أنك تنظرين إلى نفسك كثيرًا. لو أعرت الانتباه أكثر إلى ما يحدث حولك، لما توفر لديك الوقت للشعور بكل تلك الأشياء. كنت تقولين من قبل إنك كنت أمًا باردة. لماذا لا تقوِّمين هذا؟ أنت ترين مرسدس بالكاد والآن من المؤكد أنها تحتاجك أكثر مما كانت طفلة.

لماذا؟

نظر لى خوان بوجه حانق، كما لو كان توجب عليه شرح أشياء بديهية. قال:

- فى هذه الحالة ستكونين أنت آخر من يعلم. ابنتك حبلى.

تأخرت بضع لحظات لفهم معنى تلك الجملة، ولكن عندما فهمت، طفقت أبكى دون عنف، كما لو كان الأمر عبارة عن نشاط آلى تشارك فيه عيناى فقط. أجهل معنى تلك العاطفة، ولكن أستطيع أن أقول إنها كانت واحدة من أكثر العواطف حدة فى حياتى. لحسن الحظ، كنت أرتدى نظارة الشمس، وأعتقد أننى استطعت أن أخفى الدموع. إنه أمر يثير الفضول، تذكرت أن محققى ربما كان يراقبنى من جانب ما وظننت أنه لم يكن ليعجبنى أن يرانى أبكى. وأخيرًا نطقت:

- شكرًا لإخبارى يا خوان.

ظللنا لبرهة من الوقت نتحدث عن قضايا حيادية، وأصبح خوان أكثر لطفًا معى. لم يصل إلى حد الاعتذار، ولكن فى طريقة حديثه كان ثمة نبرة أسف. فى لحظة معينة سألته:

- هل تعتقد أننى أشبه أمى؟

شكلاً، نعم، بالتأكيد، أنتما متطابقتان، خاصة عندما يكون شعرك ملمومًا مثل اليوم. ولكن، فى الشخصية، لا أعتقد أن هناك أى شىء يربط بينكما، أمى كانت محافظة للغاية. كنتما تتشاجران كثيرًا بسبب ذلك.

أعتقد أن أمى كانت تعتنى كثيرًا بحفظ أشيائها وطقوسها وعاداتها، لأنها كانت وحيدة للغاية وكانت تحتاج إلى نقاط الوصل تلك كى لا تُجن.

انظرى يا إيلينا، أنا من الطبقة المتوسطة، وليس لدى القدرة على تأملات عميقة جدًا. أمى كانت لديها شخصيتها الخاصة، كما أنك لديك شخصيتك الخاصة، وأنا لدى شخصيتى الخاصة. عاشت حياة امرأة من عصرها، وعاشت مثلها أكثر من مليونى امرأة.

خوان كان قد بدأ يرجع عدائيًا، مما جعلنى أغير دفة الحور إلى مواضيع تافهة، وبعد قليل رحلنا. أعطانى قبلة حانية جدًا فى الوقت نفسه الذى كان يضغط فيه على كتفى بحركة كانت تبدو كدعوة للتماسك.

فكرت أن أعود إلى المنزل، لكن فكرة حمل ابنتى لم تفارقنى، وخفتُ أنه عندما أجدنى وحيدة، بين جدران الصالون الأربعة، تنتابنى حالة بكاء لا تُكبح. فضلاً عن أننى تذكرت مجددًا أن محققى كان يتبعنى فقررت أن أعطيه بعض الرضا. بالقرب من منزلى يوجد صالة بينجو. توجهت إلى هناك بهدف قضاء بعض الوقت وتأكيد ظنونه. ولكن كنت أحاول، قبل أى شىء، أن أفكر فى أى شىء عدا عائلتى، لأننى كنت قد بدأت أشعر بكره مفرط نحو إنريكى لعدم إخبارى أى شىء عن حمل مرسدس.

مع ذلك، عندما أطللت على صالة "البينجو" وتأكدت من كمية الوحدة المتجمعة فى كل واحد من اللاعبين واللاعبات، خرجت راكضة من هناك لأنه بدا لى مرآة كان لا يحتمل النظر إليها. وصلت إلى البيت فى حالة هياج غير مرغوب بها، وألم منتشر فى المعدة. زاد الشعور بأننى لدى شىء فى الأمعاء كان يقاوم الخروج، يقاوم أن يكون مطرودًا. ذهبت إلى الحمام ولكن دون جدوى.

جلست على مقعد أمى وفكرت فى ابنتى، فى ابنتى الحبلى. الطفلة التى كانت فى أحشائى، بين ذراعى، تستعد لتمد السلسلة، على الرغم من أننى لم أكن أعرف إلى أين وإلى ماذا. هذه هى الحياة، فكرت، هذه كانت الحياة. ليس أكثر من ذلك، ولادة، وتناسل، وموت؛ وأحيانًا أيضًا نمو. وبين شىء وآخر، فضاء فارغ، وقت ميت، رعبٌ ما ولا حتى نتذكره.

انطلاقًا من وجهة النظر تلك، الشعور بالغضب تجاه إنريكى ومرسدس لعدم إخبارى بالنبأ قَلَّ حتى اختفى تمامًا. فى الواقع بدا لى ذلك حقارة كانت تؤثر فى صورة الذين فعلوها أكثر مما كانت تؤثر فى صورتى. وهكذا عندما وصل إنريكى لم أقل له شيئًا، حتى أننى كنت لطيفة معه. الموضوع توقف عن التأثير فىّ كما لو كنت إنسانة أخرى حقًا، على الرغم من أنه لسبب ما احتفظت بمظهر أن أكون أم ابنتى.

هذا الصباح أخذت تقرير المحقق، كان من الظريف أن يصحح لى بعض الأشياء، نحو، صحيح أننى طلبت ويسكى وليس قهوة. أخيرًا، يقول الآتى:

إيلينا رنكون لديها شيء سيئ يقضى عليها. أعتمد فى قولى ذلك على واقع أنها لا تظهر أبدًا بنفس هيئتها الجسمانية. أيام بخير وأخرى لا، كما لو كانت تعانى من مرض ما مستقر يأخذ عدة أيام من الراحة. اليوم كان وجهها سيئًا، وإن كنت لا أريد أن أقول بذلك إنها لم تكن جذابة؛ بل على العكس، هذا التحول فى ملامحها أعطى وجهها هالة من الغموض. كان شعرها ملمومًا، وكانت تبدو أكثر شبابًا.

خرجت من المنزل فى السابعة مساءً وذهبت للتنزه إلى أن وصلت لمقهى لديه شرفة موجودة فى الشارع. جلست إلى إحدى الموائد بهيئة انتظار أحدهم، وبالفعل، بعد قليل وصل شخص لديه تقريبًا خمسة وثلاثون عامًا تبادلت معه قبلتين وجلست إلى جواره. قدموا لها ويسكى وللآخر مشروبًا ما.

اضطررت إلى أن أراقب المشهد من بعيد، فلم يكن المقهى آهلاً بالناس بشكل مفرط، وأفضّل ألا أدخل فى المجال البصرى لإيلينا رنكون لأسباب أوردتها سابقًا. على كل حال، عملتُ صورة فورية، المرفقة بالتقرير، ربما كانت ذات فائدة لعميلى. الشخصيات بعيدة بعض الشيء، ولكن رأسيهما مميزان بفضل وضع الضوء.

أجهل مَن مِن المحتمل أن يكون ذلك الشخص، ولكن نعم أستطيع أن أجزم أنه أساء معاملة إيلينا رنكون بالكلمات، حيث إنها، فى لحظة ما من اللقاء، لم تستطع أن تحبس دمعها. كان لدى الإحساس بأنها

كانت محاصرة، كما لو كانت خاضعة لابتزاز ما. ربما كان الأمر هكذا، ربما كانوا يستخرجون منها معلومات عن زوجها فى مقابل أن يسكتوا عن شىء ما يحرجها. أقول هذا لأن ذلك الشخص من الممكن أن يكون ضابطًا بشكل شبه مؤكد. كان يرتدى مثل الضباط، وكان يتكلم مثل الضباط، وكان ينظر إلى إيلينا، إلى إيلينا رنكون، مثل الضباط.

رحلا بعد ساعة وربع الساعة. لم تكن قبلات الوداع لضابط، ولكن أحيانًا الأشياء لا تكون كما يكون المنطق. ظننت أن الشىء السيئ الذى تعانى منه تلك المرأة من المحتمل أن يكون هاجسًا ما، لأن فى طريقة سيرها وحركة يديها محاولة للبعد عن شىء مزعج.

ربما لذلك توجهت إلى صالة البينجو، لتتلهى عن هاجسها الأصلى. أو ربما إدمانها للُّعبة قادها لديون كثيرة لا يمكن سدادها الآن. ربما لهذا السبب، فى جهد حقيقى وملحوظ للإرادة لمدمنة لعب، غادرت الصالة قبل أن تصل حتى لشغل مائدة لعب.

عادت بعدها إلى المنزل سيرًا على الأقدام بملمح قلق ومتبدل بين لحظات من الهدوء ومواقف أخرى من الهياج العصبى. تلك التفاصيل الصغيرة نعرفها نحن ـ المحققين ـ من طريقة المشى، وإن كانت تمر مرور الكرام على عامة الناس.

عندما ولجت إلى مدخل بيتها، كانت قد أظلمت. كانت تقريبًا الساعة التاسعة. كنت لأود أن يشار إلىَّ

فى المستقبل إذا كان يجب علىّ أن أعمل متابعات بسيطة أو يجب أن أحاول أن أسجل محادثات مثل تلك التى وصفتها. السعر سيختلف.

أعتقد أنه أكثر تقريرٍ أعجبنى. عندى شعور بأن ذلك الرجل سيهتم لأمرى إذا وجدنى فى موقف صعب. الصورة الفورية التى أرفقها بشعة، لأنه، بالفعل، كان من المحتمل أن يكون خوان ضابطًا يحاول أن يستخرج منى معلومات. لا يوجد أى شىء ممكنًا أن يطابق بيننا كأخوين، ولا حتى كشخصين كان لديهما أرض من عواطف مشتركة. يا للحياة.

ذهبت أمس لأرى ابنتى. كنت قد اعتقدت بسذاجة أننى كنت قادرة على البقاء على هامش موضوع حملها، لكن منذ أن حمل لى أخى الخبر والفكرة أخذت تنمو حتى أصبحت كهاجس ما إلى أن وصلتُ إلى عدم القدرة على التفكير فى أى شىء آخر. كنت أتساءل مرة تلو الأخرى لماذا لم تخبرنى؟ وكنت أرد على نفسى على هيئة حالات نفسية، بشكلٍ كان يجعلنى تارة حزينة وتارة أخرى غاضبة وفى بعض اللحظات كنت أفكر فى الأمر كما لو كان لا يعنينى. ولكنه نعم يعنينى، نعم، لأنه ربما كان عبارة عن آخر الحقائق المرتبطة بتاريخى، أو بما قبل تاريخى، لو كان صحيحًا أننى على وشك أن أتحول إلى أخرى. لا أعرف، أشعر أننى بشكلٍ ما حائرة بعض الشىء، وفى هذه الحيرة يوجد القليل من كل شىء: قلق، خوف، كراهية، دوار، ولكن أيضًا يوجد فضول، ومرحلة من التفاؤل المجانى بعض الشىء المرتبط بمستقبلى. من جهة ما يبدو جليًا أننى لم أعد أنتمى لمجموعة

العواطف المتشابكة أو المترابطة التى تشكل النسيج العائلى، لكن، من جهة أخرى، أشعر أحيانًا أن ذلك النسيج هو المكان الوحيد الذى فيه الحياة، حياتى، مازالت من المحتمل أن تكون غير مستحيلة.

موضوع أن ابنتى ستكون أمًا، وخاصة، موضوع أنها لم تجعلنى أشترك فى هذا الحدث، يجعلنى كما لو كنت خارج العالم، فى مكان الصراخ فيه لا يُسمع، والدموع فيه لا تُليِّن أى شىء. إلا أنه أيضًا جعلنى أفكر أنه، إذا انتهت فترة تحولى، سنبقى أنا وابنتى متحدتين بخيط غير مرئى، خيط حيوى، وانطلاقًا منه، ربما، يبدأ خلق نسيج جديد تشغل فيه كل واحدة منا، على مر الأعوام، مكانًا قيمًا.

حسنًا، الموضوع أننى خرجت إلى الشارع بهدف فعل شىء محدد، وبعد قليل وجدتنى أطوف بالأماكن المجاورة لمنزلها. حينئذٍ علمت أننى لم أخرج لأى هدف آخر غير الذهاب لرؤيتها. بالقرب من البوابة، فكرت أن أتصل بها لأبلغها زيارتى، ولكننى خفت أن تحاول أن تتجنبنى بحجة ما. لذلك صعدت مباشرة.

فتحت لى هى الباب، وفى الحال خمنت أن وجودى كان غير مريح لها. لم يكن ثمة أى شخص آخر فى المنزل، فزوجها كان فى العمل والخادمة كانت قد ذهبت لتوها. راقبت بحذر بطنها، ولكن مازال لا يوجد شىء يُلحظ. كانت جميلة؛ دائمًا ما كانت أجمل منى على الرغم من الهيئة الرياضية لأكتافها التى تداريها جيدًا بنوعية الملابس التى ترتديها.

كان التليفزيون لديها يعمل، ولكنها ولا حتى خفضت الصوت لكى نتمكن من الكلام. الحقيقة أننى عندما رأيتنى جالسة على تلك الأريكة، أمام التليفزيون، ومحاطة بالأثاث الفاخر الذى يعيد أسلوب حياة بعيد تمامًا عن اهتماماتى، شعرت بنوبة غم. بدا لى أن كل هذا قد رأيته من قبل فى مكانٍ ما ـ ربما فىَّ أنا نفسى ـولم يكن يؤدى إلى أى مكان، شعرت بتعب جم لبقائى على قيد الحياة، ولوجوب حضور مرحلة مرور الأجيال، وتعاقب السنين والفصول والأيام. فجأة، وجدتنى حزينة للغاية وأخذت فى البكاء.

حاولت مرسدس مواساتى، ولكنها تركتنى ألاحظ نبرة غاضبة. سألتها أخيرًا:

ـ لماذا لم تخبرينى؟

ـ لا أعرف، نحن لا نرى بعضنا البعض إلا قليلاً، لم تسنح لدى فرصة لإخبارك.

حدست أننى بين يدى الأسلحة اللازمة لأشعرها بالذنب، حاصلة بهذا الشكل على نصرٍ عليها وعلى أبيها، ولكننى لم أرغب فى فعل هذا؛ لأننى شعرت أنه أيضًا فى المشهد الذى كنا نمثله كان ثمة عنصر تكرار، عنصر تقليد، مقزز للغاية مثل مرور الأجيال وتعاقب الأيام.

بالكاد استطعنا أن نتكلم أكثر بعض الشىء، ولكن اتفقنا على أن نرى بعضنا البعض خلال أسبوع أو أسبوعين، عندما نكون نحن ـ الاثنتين ـ أكثر هدوءًا.

أعتقد أننى سأهاتفها فى يوم ما، وسأدعوها للغداء فى مكان حيادى لأرى إن كانت قادرة على طلب العون منى، على طلب مشورتى. أننى أود أن أكون ذات نفع فى فرصة ما كهذه.

هذه الليلة يجب أن أقرر، أخيرًا، إذا كنت سأسافر أم لا فى الرحلة التى عرضها على إنريكى منذ بضعة أيام.

حسنًا، أنا فى "بروكسل"، مع إنريكى. أخيرًا، قررت أن أسافر لأرى إن كان بتغير البيئة التى تغلف وجودى سيتغير أيضًا الإحساس بأننى شخص آخر. فكرت، أيضًا، إن ذلك الهروب ربما يساعد على تكوين الفرصة الأخيرة التى نوفرها لأنفسنا أنا وإنريكى للبقاء بمفردنا والتحدث عما حدث لنا فى الآونة الأخيرة.

حسنًا، وجهات نظر عديدة كانت قد اختفت أو خفّت على مر الرحلة. بداخل الطائرة شعرت كأننى ورم ينتقل من مكان لآخر دون أن يُحدث به التغير أى تأثير. قضى إنريكى كل الوقت يقرأ المجلات والجرائد بينما كنت أنظر أنا من النافذة الصغيرة وكنت أفكر فى الورم الذى صنع له عشًا فى رحم ابنتى والذى كان يستعد للنمو نحو الحياة بنفس انعدام العزيمة التى نَمَوْتُ بها، أكثر منه نحو الموت، نحو إمكانية تحولى لأخرى. فكرت، فجأة، فى أن الأورام كانت تبدو أنها حددت حياتى: ورم أمى، والآن ورم ابنتى، ولكن أيضًا

ورم معدتى، فالإحساس بأننى لدى فى أمعائى جسد ما يقاوم أن يكون مطرودًا مع بقايا عملية الهضم لم يتوقف عن النمو فى الأيام الأخيرة. من جهة أخرى، كل شىء يبدو لى مشهدًا مسرحيًا.

ذهبنا أمس إلى "بروج"، تذكرت عنوان إحدى الروايات التى لم أقرأها: "بروج"، الميتة. لا أعرف أين سمعت به. كان هذا منذ عدة سنوات، ومَكَثَ فى ركن ما من ذاكرتى، ربما ينتظر فرصة كهذه ليطفو إلى السطح. إنها مدينة ذات قنوات وضباب، تحاول أن تخفى شيئًا خلف واجهاتها النظيفة جدًا. ظننت أننا كلنا الذين يمشون فى شوارعها كنا قد متنا ولكن لم ندرك ذلك بعد.

نحن فى فندق هيلتون. على مقربة من هنا ثمة حى للمهاجرين رأيته هذا الصباح من خلال سيارة الأجرة. كلهم يعطون الانطباع بأنهم ميتون وإن كانوا مازالوا يتحركون بقوة دفع الحياة التى غادروها للتو. عندما عدنا للفندق، وبينما كان إنريكى يأخذ مفتاح الغرفة، رأيت سيدة أدهشتنى بسبب التشابه الذى بينى وبينها. فضلاً عن أنها كانت ترتدى فستانًا شبه مماثل لآخر كان عندى منذ عدة سنوات. علّق إنريكى على هذا وقال إنها أشياء تخصنى وأنه لا يرى أن هناك أى تشابه بيننا. إنه غير حساس كجثة.

اشتقت كثيرًا لمحققى. ربما لو كان يشاهد تلك الرحلة ليصفها فيما بعد فى تقريره، لما كان الواقع

يصل إلى عينىّ بذلك الإحساس الجنائزى. ولكننى ظننت أنه سيكون تقريرًا مكلفًا إلى حدٍ بعيد، لذلك لم آمره بأن يتبعنى.

يريد إنريكى أن نذهب غدًا إلى "أنتوِرب"، لكن بالنسبة لى الشىء الوحيد الذى أرغب فيه هو أن أبقى بالفندق، وإذا سمح، فى الفراش. بالمناسبة، بدأت ألاحظ أنه يشرب كثيرًا وأننى اعتدت أن أرافقه بشكل شبه دائم.

إنها الثانية عشرة والنصف مساءً. أتينا من عشاء للتو، وإنريكى فى الحمام. يبدو أنه انتهى من طقوسه. إننى مترنحة بعض الشىء ولدى أرق، فلقد شربنا زجاجتين من الخمر وعند الوصول إلى الغرفة صببنا لنا كأسًا من الويسكى. أخاف أن أضطجع وألا أنام. ماذا يحدث لى؟

ها هو يخرج.

عم المساء. إننى فى الفندق. خرج إنريكى للعشاء مع بعض السياسيين الإسبان الموفدين هنا. سألنى إن كنت أرغب فى الذهاب، ولكن بحماس فاتر، فضلاً عن أننى كنت أرغب فى أن أظل بمفردى لبعض الوقت. قبل أن يخرج قال إنه سيحاول أن يأتى بشىءٍ من الحشيش. ربما لا يكون الأمر سيئًا بالنسبة لى؛ أحيانًا سيجارة ملفوفة تبدل نظرة الواقع. السيئ فى الأمر أنه مؤخرًا أخذت تبرز رؤية الواقع التى أريد أن أهرب منها.

ذهبنا هذا الصباح إلى "أنتورِب". لحسن الحظ، قرر إنريكى أن يستأجر سيارة؛ رحلة أمس إلى "بروج" كانت فى القطار، وأرهقتنى للغاية. ضغطى ضعيف جداً بسبب الحر والرطوبة. فى منتصف الطريق، انعطف إنريكى من الطريق العام، ووصلنا إلى قرية مليئة بالأبقار. كان إنريكى يبتسم بخبث، كما لو كان سيفاجئنى بشىءٍ ما، وكان يقول" سوف ترين، سوف ترين".

حسنًا، الموضوع أننا وصلنا إلى منطقة صناعية ضخمة مليئة بالغرف المبردة التى كانت تبدو كالمنازل. دخلت فى اثنتين منهما وخرجت شبه ميتة من البرد. كانتا مليئتين بحيوانات كبيرة، أعتقد أنها أبقار، مقطّعة، أو مشقوقة طوليًا. باقى المنطقة الصناعية كانت تشغله سيدات يرتدين ملابس بيضاء، وكن يقطّعن، بأستاذية فائقة، قطعًا كبيرة من اللحم كانت تصل إليهن من خلال سيْر متحرك. الشخص الذى كان يأخذنا من مكانٍ لآخر كان يتحدث بالفرنسية مع إنريكى وكان من حينٍ لآخر يبتسم إلىّ ليعوضنى عن قلة اهتمامه بى.

بعد نصف ساعة تقريبًا، فقدت الوعى، من ناحية بسبب الضغط المنخفض، ومن ناحية أخرى لأننى بدأت أشعر بوجودى داخل كابوس لم أكن أستطيع أن أستيقظ منه. قبل أن أفقد الوعى بقليل، شرح لى إنريكى مبتسمًا، على إنفراد، أن خمسين فى المائة من هذه التجارة هو ملكٌ له. تدارك قوله فورًا:

ملكٌ لنا. استطعت أن أضع هنا الكثير من المال عن طريق شخص وسيط.

فكرة التداول فى اللحم، اللحم الميت، حتى ولو كان لبقرة، أوحى إلىّ بصورة أن كل الموجودين هنا ما كنا إلا مجموعة من الموتى نقطّع جثث من جنس آخر، أقل منا فى الهرم التراتبى، لتبديل قطعها بمالٍ يسمح لنا أن نموت موتة كريمة. أعتقد أنه من الآن فصاعدًا

سيبدو لى المال البلجيكى دائمًا العملة المتداولة فى بلد الأموات. حسنًا، عندها شعرت بإحساس العرق بشدة بالغة، نظرت إلى السيدات ذوات السترات وأغطية الشعر والأحذية البيضاء، اللاتى كن يبدون كممرضات تحركن جثثًا مقطوعة، وفقدت الوعى.

حمدًا لله أن السيارة كان بها مكيِّف، لأن الجو الخارجى كان يبدو لى أنه لا يساعد على التنفس. قال لى إنريكى بعد أن وصلنا للطريق العام فى طريقنا إلى "أنتورِب":

يجب أن تذهبى إلى الطبيب.

إنه الضغط؛ أما عن الباقى، فإننى بخير.

لم أسأله عن أى شىء حول المشروع الذى كان قد أرانى إياه بأمل كبير، وأنا أعلم أن إنريكى لا يغفر لى مثل هذه الأشياء، لأنه يشعر أننى لا أقدر ما يفعله. بالفعل هذه هى الحقيقة، أننى لا أقدر ما يفعل، لا يهمنى على الإطلاق، على الرغم من أننى أعلم أنه بفضل هذا نحيا حياة كريمة. لو كان يحب مرسدس كثيرًا فذلك لأنها معجبةٌ به، وتقول له باستمرار إن كل ما يقوم به رائع.

فى "أنتورِب" تجولنا كثيرًا، لكننى لم أر أى شىء. كما بالأمس فى "بروج"، بدا لى أننا نتحرك جميعًا بداخل مشهد مسرحى. لدى ذكرى جميلة للكاتدرائية لأنه بداخلها كان الجو باردًا وظللت لفترة طويلة جالسة على أحد المقاعد.

منذ قليل أطللت برأسى من النافذة لأتأمل الشارع، ورأيت رجلا ذا هيئة رثة يسير نحو حى المهاجرين الذى مررنا عليه أمس. حاولت أن أتخيله وهو يدخل منزله، مستحضرةً مشهدًا عائليًا. بأية لغة كان ليتكلم؟ بالتركية أم بالإسبانية أم بالفرنسية...؟ هل سيكون حقًا لديه منزل وهوية؟ أحيانًا أعتقد أن الهوية أمر مؤقت، ممكن أن يقع من المرء مثل الشعر الذى يقع منا عندما نتمشط ويختفى فى بالوعة البانيو نحو شىء نجهله. لذلك، على سبيل المثال، لم أكن أجرؤ على الخروج وحدى من الفندق، لخوفى من أن أعود ولا تكون ثمة أية غرفة باسمى، ولا أن يتذكروا أننى كنت مقيمة هناك. حينئذ كنت سأنتظر زوجى حتى يعود، ولكنه لم يكن ليعود، لأنه فى الواقع لم يكن ليوجد أحد قد تزوجنى ولا يدعى إنريكى. وقتها، كنت سأتصل بمدريد، بابنتى، ولكنها لن تكون موجودة، تلك الابنة التى كانت تشكل واحدة من نقاط الوصل خاصتى. لذلك كان يخيفنى أن أخرج، خوفًا من ألا يتعرفوا علىَّ عند عودتى وأظل بلا هوية.

حسنًا، عند الغداء، فتحت موضوع حمل مرسدس، وعاتبت إنريكى على عدم إخبارى به، فرد قائلاً:

- ظننت أننى لست الشخص المناسب لاطلاعك على هذا الخبر.

- صحيح؟ ومن هو الشخص المناسب؟

- ابنتك. أعتقد أنه كان يجب أن تخبرك إياه مرسدس. إن لم تكن قادرة، فأنت وهى تعرفان السبب.

- فجأة كل شىء أصبح منظمًا، كل العالم لديه دور فى تلك الحكاية، ويعرف ما يجب أن يقال، وفى أى وقت. ولكن الموضوع يا إنريكى إننى خارج هذه القسمة.

كل واحد منا موجود فى المكان الذى وضع هو نفسه فيه يا إيلينا.

خمنت نبرة هياج فى إجابته؛ ربما كان لا يزال حانقًا لأن مشروعه للحوم لم يثر اهتمامى، أو ربما كان يدعى استغلال الموقف ليحصل على حوار نهائى معى. قررت ألا أعطيه الفرصة فغيرت دفة الحديث إلى سبلٍ أخرى، مقللةً من أهمية موضوع حَمْل مرسدس.

ظللت للحظة فى الحمام، محاولة أن أبعد نفسى عن ذلك النوع من الكتلة الساكنة بأمعائى، وتذكرت ما قالته أمى فى يومياتها عن حمامات الفنادق. كان لديها الحق: إنه مكان رائع لعمل معاهدة مع الجنون نفسه، أشكالها مكثفة ولامعة، ولكنه هش مثل التوازن العصبى لأمى، ولى.

بالمناسبة، أحضرت معى الكشكول الأخير من يوميات أمى بنية أن أقرأ تسلسلها النهائى هنا. أرجأت تلك القراءة عدة أسابيع، ولا أعرف لماذا!؟

ظننت أن الغُرية ستكون المكان المناسب لأنهيها. بشكلٍ ما بعد أن أنهيت تلك الجملة أخذت أقرأ:

ها قد ظهر السيئ. لى عدة أيام طريحة الفراش، وغدًا سيأخذوننى إلى المستشفى ليجزوا لى عملية. لكننى أعرف أننى لن أعود إلى المنزل لأن قرينتى حضرت هذا المساء لزيارتى، وعندما يحدث شىء غريب للغاية مثل هذا، عندما ينكسر توازن ضرورى بهذا الشكل، فهذا لأننا سننتقل إلى رحمة الله. جلست إيلينا، قرينتى، عند حافة الفراش، وسألتنى كيف حالى. لم تكن تشعر أنها على ما يرام، ومكثت وقتًا قليلاً. قلت لها إنه أسعدنى للغاية معرفتها بعد سنوات طويلة، وعاتبتها لشربها الكثير من الكونياك، فبالنسبة لى لم يكن يُشعرنى أننى بخير.

كنت أود أن أقول شيئًا أكثر من هذا، ولكن ليس لى رغبة بذلك، وإن كان يتعين علىَّ أن أضيف أننى اعتنيت واحترمت ذلك الورم الذى اكتشفته فى أحد الفنادق بالخارج منذ عدة سنوات؛ يجب أن أقول إنه تلقى اهتمامى ذلك بشكل جيد، بالإضافة إلى عمله كمنظم لسلوكى. عندما كنت أتصرف بشكل سيئ، أو لا أعتنى جيدًا بالبيت، كان ينمو بشكل أسرع من العادى. وفى الفترات التى كنت أشعر فيها أننى بخير، أننى بسلام مع نفسى، كان يتوقف عن النمو، وكانت هناك فترات ولا حتى كنت أتذكره فيها. لذلك، ربما، كان يجعلنى أكثر سعادة أن أنسى مشاغلى. لأنهى ما أكتبه سأشير إلى أننى لدى ثمانية وستون عامًا، على

الرغم من أننى لست متأكدة أننى كنت دائمًا نفس الشخص خلال كل هذا الوقت.

قراءة هذا المقطع النهائى من يوميات أمى، من وجودها، أزعجنى بشكل كبير، وحملنى على البكاء. عندما قالت إن قرينتها ذهبت لزيارتها اليوم السابق لخروجها من المنزل، فى اتجاهها نحو المستشفى، كانت تقصدنى أنا. أتذكر أننى ذهبت لرؤيتها لأن الأنباء عن صحتها كانت بدأت تصبح مقلقة، وكنت أشعر أنها لم تكن تعرفنى. فى الواقع، كانت تخلط بينى وبين قرينتها، مما كان، من جهة ما، شيئًا لطيفًا، ومن جهة أخرى، فظيعًا. فضلاً عن أننى تذكرت أنه فى حجرة استقبال المستشفى رأيت امرأة كانت تشبهنى، مرتدية فستانًا ربما كان لى فى وقت سابق. ربما تكون قرينتى، ربما كانت قد هربت من موقعها الهندسى لتأتى لتخبرنا بموتنا، موتى وموتها.

لم يعد إنريكى، والآن كنت سأشعر بخير برفقته وربما مع سيجارة حشيش، إن كان قد حصل عليها.

وصل إنريكى بالأمس متأخرًا جدًا وثملاً بعض الشىء. وجدنى محبوسة فى الحمام، أبكى، فريسة لنوبة غم أطلقها جنون آخر مقطع من يوميات أمى. كان يحضر الحشيش ولففنا سيجارة حاولت أن أزيد تأثيرها أو أخلطها بكأسٍ من الويسكى. سألنى عما ألمّ بى وقلت إننى لم أكن أشعر أننى بخير. سألنى بنبرة صابرة:

ـ ما الذى يؤلمك الآن؟

ـ لا يؤلمنى شىء، الأمر ببساطة أنك تتحدث إلى شخص يحيا فى الجحيم، وأنت لم تنتبه إلى ذلك بعد.

كلنا نحيا فى جحيم ما يا إيلينا، كلنا، ولكننا لا نجعل أحدًا يدفع ثمن أعمالنا. أتعلمين لماذا؟ لأن كل واحد منا يختار جحيمه الخاص، ذلك الجحيم الذى يجد نفسه فيه أكثر راحة. أعلم أنك أحيانًا تحتقرين حبى للمال، وأنك بعيدة تمام البعد عن أعمالى، عن أعمالنا، لأنهم أيضًا أعمالك. حسنًا، بفضل تلك

الأعمال أستطيع أن أغطى تكاليف الأجحمة(*) التى أريدها ولا أسير هنا وهناك أحكى للناس عن مآسىّ. ما يحدث لك هو أنك مازلت تجهلين فى أى جحيم تريدين أن تحيى. تأكدى منه، خذى الوقت الذى تحتاجين وعندما تعرفينه أخبرينى به. أعتقد أننى سأتمكن من دفع تكاليفه مهما كلفنى من ثمن. أثناء ذلك، فلنحاول أن نأخذ القليل من الهدنة، من فضلك.

هناك أشياء لا علاقة لها بالمال. أنا وأنت عشنا من تلك الأشياء فى وقتٍ سابق.

أنظرى يا إيلينا، فى ذلك الوقت كانت لدينا دوافع، ولكننا كنا نفتقر إلى أفكار. أنا الآن لدى أفكار، أنا ملىء بالأفكار التى تتغذى على المال أو ما يندرج تحت المال ولا أفكر أن أرفضها لأنها سبب وجودى. كونى حذرة، لأنه عندما تموت الأفكار تحل مكانها المثاليات، وفى مثل هذا العمر، ها نحن نعرف إلى أى حد يمكن أن تصل المثاليات.

لم أشأ أن أواصل الحديث، فلقد فهمت أن كل منا كان يتحرك بمنطق مختلف عن الآخر وإن كنت أحسد مَنْطِقَه لأنه كان صلبًا مثل الحجر. عندما أصبحنا مرهقين للغاية، دخلنا فى الفراش ومارسنا الحب بشوق غير مفهوم. ولكننى فهمت فى لحظة ما أن الشوق كان يأتى من معرفتنا بأنها كانت المرة الأخيرة التى كنا نفعلها. وفهمت أيضًا أننى لن أعود

(*) جمع جحيم.

للبيت، لا لأننى سأموت، مثل أمى عندما استقبلت زيارة قرينتها، ولكن لأننى كنت أسرع عملية تحولى إلى أخرى لأجد، أخيرًا، جحيمى الخاص، وأرتاح.

خرج إنريكى وأنا أعد أمتعتى لأعود إلى مدريد من دونه.

إنجاز القضايا ذات النوع العملى يمكن أن تعلل حياة بأكملها، بقبحها التى هى عليه. أنا فى فندق انتقلت إليه بشكل مؤقت عند عودتى من "بروكسل"، بينما كنت أبحث عن شقة ما. أخيرًا وجدت شقة على ذوقى وسأنتقل إليها فى الأيام المقبلة. تركت لإنريكى ملحوظة معللة هجرى، وحتى الآن لم يحاول أن يعثر على مكانى. لا أعرف إذا كان هذا التصرف يعجبنى أم لا. على أى حال، تلك الأيام، المخصصة لحل القضايا العملية الخاصة بوجودى القادم، جعلتنى أتفكر بعض الشىء فى نزعاتى البرجوازية ورأيتنى مجبرة على أن أعطى لإنريكى الحق فى بعض الأشياء. لم أكن لأعيش فى أى مكان ولا بدون وسائل رفاهية ذات حد أدنى، مثل التى اعتدت عليها، ولكننى لست أيضًا مستعدة بأن يكون الاستمتاع بالعديد من أسباب الراحة يكون على حساب معرفة من أكون، ولا أين هى اهتماماتى. بشكلٍ ما توصلت إلى اتفاق بين طموحاتى البرجوازية وجنونى، كابحةً من جنونى

وتاركه طموحى ينمو بخفة، ليصل إلى نقطة التوازن الضرورى لذلك الجزء الأول من حياتى الجديدة.

أول ما فعلته عندما وطئت قدماى "مدريد" كان مهاتفة المحقق ليصنع تقريرًا يوميًا عن نشاطاتى.لم أستطع أن أستغنى عن تلك التقارير على الرغم من التفاهة التى هى عليها، ليس فقط لأنها تثبت وجودى، ولكن أيضًا لأن الأيمان بأن أحدهم ينظر إلى يعطينى القوة على التحرك من مكانٍ لآخر فى تلك المهمة الشاقة للغاية فى سبيل إنشاء حياتى الخاصة. إننا لا ننتهى أبدًا من صنع أنفسنا؛ أشعر هذه الأيام بأننى أواجه نفسى مثل نحّات يقف أمام صخرة يجب إن يحذف منها كل ما هو غير جوهرى.

أعتقد أننى أقلعت عن الحشيش بشكلٍ نهائى، على الرغم من أنه ربما سيكون أكثر دقة أن أقول أن الحشيش هو الذى أقلع عنى، فإرادتى لم تدخل فى عملية الانفصال تلك. ببساطة، لم يعد بى رغبة فى التدخين وبفضل هذا أستيقظ أقل تشتتًا فى الصباح ولا ألاحظ الجفاف الشديد لحلْقى. الحقيقية هى أننى لا أرغب أن أترك الحشيش بشكل قطعى؛ لأننى أدين له بأشياءٍ كثيرة، ولكن نعم ربما رغبت، فى المستقبل، أن يكون لدى علاقة مختلفة مع الحشيش، أقل إجبارًا. سيكون الموضوع هو التدخين لأكون بخير وليس العكس. سنرى.

الحر شديد فى هذه الأيام، والناس تمشى كما لو كانت سعيدة بقرب الإجازات. يسعدنى كثيرًا عدم

وجـود إجـازات ذلك الـعـام، وفـقـط آمل أن يـتـرك كل العـالـم "مـدريـد" لأبقى وحـدى ولـيـغـزونى المسـتـقـبل. المستـقـبل ورم مـا بـدأ يـنـمـو فى جـزء مـا مـنى والـذى سأطعمه كابن لى. الأمر فى النهاية أنه استحق العناء أن أحيا.

الـفـنـدق بدأ يـخـيـفـنى. أخـرج قـلـيـلاً لخـوفى من أنه عـنـد عـودتى لا يـتـعـرفـون عـلىَّ، أو ألا تـكـون ثـمـة أيـة غرفـة بـاسـمى، أو أن يـتـحـدثـوا بـلـغـة مـجـهـولـة بـالـنـسـبـة لى. لحـسـن الحـظ، خـلال بـضـعـة أيـام سـيـنـتـهـون من تـصليـحـات الشـقـة التى استأجرتها، وسيمكننى الانتقال للعيش فيها.

أشعر هذه الأيام بطعم كريه فى فمى، وليس لى رغبة بتاتًا فى الأكل. على كل حال، جسدى، بشكلٍ عام، يتحسن. صعدت بالأمس لآخذ حمامًا فى حمام سباحة الفندق ولاحظت أن عضلاتى كانت تتجاوب مع تحفيز الماء. كان الأمر كما لو كنت أستعيد بُعدًا قديمًا ومنسيًا فى جسدى. عندما عدت إلى الغرفة، كنت تعبة جدًا، وهذا سبب لى سرورًا بالغًا، فلى سنون لم أكن أعرف فيها ذلك النوع من التعب. ربما يتوجب علىَّ السعى إلى التقليل من الشرب بعض الشىء، ولكننى أقضى ساعات كثيرة فى تلك الغرفة وأحيانًا أحتاج إلى أن أترنّح بعض الشىء. مع ذلك، وهو شىء غريب، شكلى كما هو؛ ربما نقص وزنى بعض الشىء لأن الحشيش كان يجعلنى آكل بشكلٍ غير منتظم، لكن عمومًا مازلت أحتفظ بنفس الخصر الذى كان لدى منذ خمسة عشر عامًا. فى هذا الأمر كان حظى موفورًا؛ أعرف سيدات أخريات يشربن أقل منى وعضلات بطونهن مترهلة للغاية هذا بالضبط ما كان يشير إليه المحقق فى يوم سابق فى تقريرٍ ما:

منذ أن غادرت المسكن العائلى، وإيلينا رنكون تحسنت كثيرًا، ربما لأنها أكثر هدوءًا أو لأنها تهتم بنفسها أكثر. المؤكد أنه أحيانًا يدهشنى التفكير أن لديها أربعة وأربعين عامًا تقريبًا، ومع ذلك لم تفقد خصرها بعد...

تشتمل تقاريره على ترديد جمل من هذا النوع، مرتبطة بهيئتى الجسدية. كان يقول عن رأسى أن تجاعيد وجهى تبدو منذ وقت قليل بشكلٍ جيد، كما لو كنت قد وزعتها فى وجهى بدفعة من ذكاء فنى. منذ أن أقلعت عن تدخين الحشيش، ربما أيضًا لأننى أقل غيبوبة عما يحيط بى، بدأ يعجبنى أن أهتم بنفسى أكثر بعض الشىء. يتعلق الأمر بمشروع بعيد، بنية ما، التى بها ربما أكون فى طريق اكتشاف شكل مختلف من العلاقة بين جسدى نفسه وبين أعضائه. أمى، بناء على ما رأيته فى يومياتها، كانت قادرة فقط على أن تتكلم عن الأحشاء: بالنسبة لى، مع ذلك، يعجبنى أكثر الجلد والعضلات التى ترتسم أسفل الجلد. أمام الفندق توجد حديقة ما، وفى بعض الأيام صباحًا، أرى من غرفتى فتاتين تجريان. هما أكثر شبابًا منى بكثير، طبعًا، ولكنى أرى فيهما جزءًا منى كان نائمًا أو ميتًا منذ وقت طويل.

أعتقد أننى أتحسن جسديًا، حتى أننى أستطيع أن أطرد ذلك الجسم الغريب الساكن بأمعائى. هذا الاعتقاد يشعرنى بشىء من الدوار، لأننى عندما سأجد نفسى على تلك الدرجة من التحسن، لن يكون

لدى بعد حجة لأكون فى مواجهة نفسى، مواجهة رغباتى. وضع كل الشوق فى الجسد، فى علاته أو فى اختلالاته، لديه مزايا عديدة، ولكنه ينتج أيضًا كميات كافية من المعاناة.

طلبت من أخى أن يكفل هو بنقل ساعة ومقعد أمى إلى الشقة، بالإضافة إلى بعض أدوات الزينة الشخصية. أفضل أن يتكفل أخى بذلك، فليس لى أية رغبة بالتحدث مع إنريكى ولا دخول المنزل فى الوقت الحالى.

لم أهاتف ابنتى بعد. أعتقد أننى أؤخره لأننى لا أشعر أن بى قوة لمواجهتها مرة أخرى. ربما أفعل عندما أجدنى فى تلك التى ستكون شقتى...

تلقيت اليوم خطابًا من إنريكى. أحضره إلىَّ رسول ما. أعتقد أنه يتناول شيئًا يحررنى، ولكننى حزينة، كما لو كان لا يجدى أن يكون شيئًا دون الآخر. يقول هكذا:

عزيزتى إيلينا: فضلت أن أكتب إليك تلك السطور على أن أحادثك هاتفيًا لكى لا تفسرى تصرفى كرغبة فى التدخل فى قراراتك، على الرغم من أن تلك القرارات تخصنى بشكل مباشر. أعرف أنك فى هذا الفندق عن طريق أخيكِ، وعن طريقه أيضًا أعلم أنك على ما يرام.

أعتقد أن ما يحدث لا علاقة لى به، لا علاقة لنا به.لأى سبب كان، لقد قررت أن تعيدى توجيه حياتك، أو تدميرها، وفعلت ذلك دون أن تتحدثى إلى أحد. إننى لا ألومك.

بالنسبة لى ـ فى حال ما إذا كان يهمك – أريد أن ألفت انتباهك إلى، بعيدًا عن رأيى حول تصرفك، إننى موجود لمساعدتك فى أى شىء ممكن. مع ذلك

أريدك أن تعرفى أننى لست مستعدًا للمعاناة وأننى أبدًا لن أعاود إعطاءك الفرصة لتفعلى بى تلك المشاهد التى توجب علىّ أن أتحملها فى رحلتنا إلى "بروكسل".

أرجوكِ، حيث إنك قررت الاختفاء على هذا النحو، ألا تتصلى بى أبدًا، إلا لكى تخبرينى بشىء جيد. أنا أيضًا لدى الحق فى أن يحترم العالم الحياة التى اخترتها، وفى هذا الشكل من الحياة ليس هناك متسع للتراجيديات ولا للآلام المعوية ولا للصداع، وفوق كل شىء، الأسئلة الكبيرة حول الوجود أو الانزعاج لعدم معرفة إلى أين سنذهب؟ ومن أين أتينا؟. أنا لا أفهم أى شىء حول تلك القضايا التى لم تعد تهمنى قبل أن أتخطى عتبة النضج بكثير.

هذا لا يعنى أننى لا أحبك، وإن كنت أستطيع تمامًا أن أتخلى عنك كما تخليت عن أشياء أخرى كنت أيضًا أحبها بنفس الطبيعة التى يُفقد بها الشعر أو تكسينا التجاعيد الأولى. فيما يتعلق بمرسدس، ابنتنا، حكيت لها، دون الولوج فى التفاصيل، عن انفصالنا ولم تعلق بأى شىء. ربما يجب عليك أن تتحدثى معها. يجب أن أعترف أن فكرة أننى سأصبح جدًا تجعلنى سعيدًا جدًا، وخاصة أن أكون جدًا شابًا. يجب على المرء أن يصب عواطفه فى مكان ما وأنا بدأت أصب جزءًا كبيرًا من مشاعرى فى ذلك الطفل أو الطفلة التى ستدخل حياتنا بعد بضعة أشهر.

فيما بعد، عندما تكونين قد استقر بك المقام جيدًا أو عندما تكونين أكثر هدوءًا، يمكننا أن نتكلم، إذا أردت، عن القضايا ذات الطابع العملى الخاصة بذلك الانفصال الذى لم أشجع عليه ولم أطلبه.

لن أكتب الجملة الأخيرة، الخاصة بالوداع، لأنها تبدو لى كصيغة خطاب تجارى. خطاب إنريكى بارد جدًا، وإن كان سلوكى لا يستحق أمرًا آخر، ولم يكن لدى الرغبة فى أية لحظة أن أرد عليه، فواحدة من القرارات التى اتخذتها كانت ألا أعاود الكلام أبدًا مع من لا يفهمنى. الأمر غير مجدٍ على الإطلاق....

ربما كانت العلاقة التى كانت لدى مع الحشيش كانت بديل عن العلاقة التى كانت لدى مع أمى. لقد أشرت فى مكانٍ آخر أنها قد أعطتنى كل الطيب وكل السيئ، على الرغم من أنه كان فى الوقت نفسه وبغير ترتيب، كما لو كانت مهمة انفصال واحد عن الآخر والاختيار كانت من اختصاصى أنا. حدث لى مع الحشيش شىء مشابه، لأن بفضله نفذ إلىّ إحساس مختلف عن الواقع وساعدنى على الهروب من السجون التى اعتادت النساء أن يقعن فيها بشكل عام، والسجن الذى كان مخصصًا لى بشكلٍ خاص. الحشيش ساعدنى لأرى الفخ، كما كان سوف يقول إنريكى، الذى يختبئ أسفل الأشياء، ولكنه أيضًا أعطانى عددًا لا يحصى من الاختلالات التى كانت تقودنى لحالة من تحطيم الذات، الشىء الذى يبدو لى غير مفهوم انطلاقًا من وجهة النظر الجديدة تلك. أقول تلك الجملة الأخيرة بخوفٍ حقيقى، لأننى أعلم أن توازنى مؤقت للغاية، وأن به أشياءً لا أملك السيطرة عليها بشكلٍ جيد: تلك الأشياء التى مازالت توسوس لى لأعود إلى وضعى السابق.

اليوم هو يوم الأحد والناس والأشياء ينبئون عن الحالة الاحتفالية لليوم. دائمًا ما خشيت أمسيات أيام الآحاد، فلقد كانت تبدو لى كفترة فاصلة من الحياة ذاتها، نوع من وقف الإحداثيات التى اعتدنا أن نقوم بها. الآن بما أننى ليس لدى إحداثيات، وبما أننى فقدت كل نقاط الوصل، مساء الأحد يبدو لى مكانًا للراحة. سآكل فى الفندق، وفيما بعد من المحتمل أن أقوم بجولة لأعطى شيئًا من العمل لمحققى. أتخيله كثيرًا، أتخيل صورته، وأعترف أن الإعجاب الذى يصارحنى به، والذى يظهر كل يوم بحياء أقل فى تقاريره، يعطينى نوعًا من الدوار الذى أحيانًا يذكرنى بدوار الشباب. بعدها سأشاهد التليفزيون محاولة ألا أشرب أكثر من كأسين من الويسكى.

أعتقد أن شقتى ستكون جاهزة فى الأسبوع المقبل. انتهوا من الطلاء ومن التصليحات التى طلبتها فى المطبخ والحمام. سأخرج غدًا لأنتقى بعض الستائر.

بالأمس، أخيرًا، خرجت لأقوم بآخر مشترياتى لأجعل الشقة جاهزة. كان الحر شديدًا، ارتديت بلوزة خفيفة وجونلة واسعة، خفيفة جدًا، كنت قد اشتريتها هذه الأيام. الملابس كانت مراهقة بعض الشىء وكانت، مع ذلك، لائقة على، كما لو كانت تجعلنى أصغر حجمًا. ربما يجب أن أهندم شعرى، أن أغيِّره. لدى هذا الشعر المسترسل منذ ما يقرب على عشرين أو خمسة وعشرين عامًا، وبالطبع سيكلفنى التعود على العيش بدونه، ولكنى أعتقد أننى إذا قصصته سأكون أكثر شبابًا.

كنت فى وسط البلد، أشاهد محلات وأختار تفاصيل تجعلنى أشعر بالحماية فى المنزل. أكلت فى مطعم حيث، للغرابة، عندما كنت أشرب القهوة، بدأت فى العمل أغنية للبيتلز كنت قد سمعتها منذ عدة أشهر، عندما كنت آكل أيضًا فى مطعم آخر. الموقف كان مشابها للغاية، ولكن أنا كنت مختلفة. الآن أنا امرأة قد تناولت زمام حياتها، على الرغم من أننى لا

أعرف إدارتها بشكل جيد جدًا، بينما الذكرى التى لدى من وقتها هى لامرأة كانت تعتمد تحركاتها على دافع خارج عن إرادتها، كما لو كانت إنسانًا آليًا، أو آلة حية تديرها يد ميكانيكى غير مرئى.

عندما خرجت مرة أخرى إلى الشارع، هاجمونى. نزلت نحو شارع "سِرّانو"، وفجأة، خرج من عتمة إحدى البوابات شاب فى العشرين تقريبًا ووضع المطواة فى مستوى المعدة. مع ذلك، فى اللحظة التى أوشكت فيها على إعطائه الحقيبة، ظهر منقذ، ووقف متدخلاً بينى وبين المهاجم. أتذكر أننى خرجت أعدو، بينما ندمت لعدم استطاعتى التمعن فى ملامح منقذى، فلم يكن شخصًا آخر غير محققى. هذا الصباح أرسلت الفتى العامل بالفندق ليأخذ التقرير. يقول هكذا:

فى الساعة الثانية عشرة من تاريخه خرجت إيلينا رنكون من الفندق المقيمة فيه بشكل مؤقت، وتمشت بهدوء حتى المنطقة التجارية فى وسط البلد، حيث ابتاعت أشياء من محلات عديدة. كانت مرتدية ملابس خفيفة وبسيطة، بلوزة وجونلة مصممة بلا شك لنساءٍ أكثر شبابًا منها بكثير. مع ذلك، الجونلة، الجونلة خاصة، كانت لائقة جدًا عليها.

نوع المشتريات التى ابتاعتها تفصح عن نية فى الانتقال فى أقرب فرصة ممكنة إلى الشقة التى استأجرتها فى شارع "ماريا مولينر"، فى ضواحى

ميدان كاتالونيا وإلى حد ما قريب من منزل الزوجية. أحيانًا، ترك حيٍ ما يكون أصعب من هجر زوجٍ ما.

أكلت على مهل، كالمغيبة عن الوعى، فى مطعم بشارع "بِلاثْكِث"، وعند الخروج من هناك كانت على وشك أن يعتدى عليها أحد الشباب الذى كان يبحث عن مال بشكلٍ عاجل ليشترى نوعًا ما من المخدرات. وقفتُ حائلاً بينها وبين الشاب، فخرجَتْ تركض، تلقيت جرحًا صغيرًا عند الحجاب الحاجز قبل أن يسنح لدى الوقت لأدحرجه على الأرض إثر صفعة ما. لم يكن ليزن أكثر من خمسين كيلو جرامًا وندمت بعدها لضربه بقوة بالغة.

الأمر أننى فقدت أثر إيلينا رنكون واضطررت أن أذهب لعيادة للطوارئ ليطيبوا جرحى. من المحتمل أنه لم تتوصل إيلينا رنكون إلى حد أن ترى وجهى، فلقد وقفت عند ظهرها ولم يكن هناك وقت حتى لكى يتمعن كل منا فى الآخر قبل أن تقدم على الهرب».

أنهى التقرير عند هذه النقطة، فلا يوجد شىء جوهرى لأضيفه ولست فى أفضل وضع لأساعد على التئام الجرح.

بعد أن قرأته، هاتفت الوكالة لأسمع صوته والمحادثة جرت بشكل لم أتوقعه، ولكنها أعجبتنى كثيرًا. قلت بنبرة دفاعية، بعد أن عرّفت نفسى:

ـ مهمتكم لا تعتمد على حماية إيلينا رنكون من اعتداءات الشوارع، بل تعتمد على ملاحقتها أينما تذهب وأن تعلمنا بعد ذلك بتحركاتها.

رد عليَّ بأسلوب مهذب:

ـ المعذرة، أنا أعلم ما هى مهمتى عندما أرى شخصًا ما يتعرض بالاعتداء على آخر. كنت لأعاود فعل ما فعلته، حتى وإن كانت النتائج ستكون أكثر خطورة من التى كابدتها.

ـ التقرير مقتضب بشكل مبالغ فيه، كما لو كنت تحاول أن تخفى عنا شيئًا من التحركات التى فعلتها إيلينا رنكون. بدأنا نشعر أن حضرتك معجب بتلك المرأة بشدة وربما سيتوجب علينا أن نستغنى عن خدماتكم.

ـ حسنًا، بما أنك قلت ذلك، اسمحى لى أن أستقيل من ذلك العمل البغيض حالاً. لم يكن عليَّ أن أقبل أبدًا عمل تحقيق بهذا الشكل.

أجبت بصوت مغرٍ خشية أن يغلق السماعة:

ـ ولماذا تقول هذا؟

ـ أولاً يا سيدتى، لأنه لا يمكن العمل لعميل دون رأس؛ ثانيًا، لأن دائما ما يجب معرفة الهدف الموجه إليه التحقيق؛ وثالثًا، لأننا فى هذه الحالة نقترف ظلمًا ضد امرأة بلا أى دفاع، وكل ما يمكن أن نعيبها عليه هو ميلها المرضى نحو الميسر، الميل الذى تيقنت أنها

تريد أن تتخلص منه. لو المشكلة أنها تكبدت دينًا ضخمًا فى إحدى الصالات، خذوا المال من زوجها، الذى لديه منه الكثير. ولكن دعوا إيلينا رنكون وشأنها، ويكفى أنها قاست متحملة تلك السنوات مع المدعو إنريكى أكوستا.

إنك واقع فى حبها وهذا يمنعك من أن تكون حياديًا. لا تثق فى ذلك.

حضراتكم طلبتم منى الا أكون حياديًا. تلك المحادثة، من جهة أخرى، عديمة الجدوى. انقلى استقالتى إلى رئيسك وحذريه من أننى سأواصل مراقبة إيلينا رنكون، ولكن هذه المرة لأحميها منكم. لا أعلم فيما تعملون، ولكن الأمر عندما يكون سريًا للغاية معناه أنه يخفى شيئًا غير شرعى. المسوا شعرة واحدة من تلك المرأة وسأتصدى أنا لكم.

قال هذا وأغلق السماعة تاركًا إياى غارقة فى دهشة لم أستطع أن أفق منها بعد. هل سأكون جزءًا من قصة ما؟ لا أعرف، المؤكد أن المحقق أصبح يشكل نقطة وصل من الصعب التخلى عنها فى الوقت الحالى. فجأة، قفزت بذهنى فكرة أنه من المحتمل أن يكون ذلك الرجل قد عرف من أكون، وهكذا أصبح تصرفه متجهًا لإثارتى.

بعد غد سأنتقل إلى شقتى الجديدة.

قصصت شعرى، قصصته قصيرًا جدًا، كفتاة شابة رأيتها فى إحدى المجلات. أبلله كل يوم، عندما أستحم، وينشف منى فى لحظتها. فكرت أننى كان يجب أن أقصه قبل أن أشغل شقتى الجديدة لأكمل التحول. أنا إنسانة أخرى.

هذا المساء نمت لأول مرة فى الشقة وحلمت كثيرًا، ولكن كانت أحلامًا غريبة، صعبة فى وصفها للغاية، لأنها كانت تفتقر للتماسك الذى نطلبه من الأشياء التى نحكيها خلال السهر. عندما كنت أدخن الحشيش، لم أكن أحلم، كما لو كانت المخدرات تحل محل الأحلام؛ بمعنى أصح، تحل محل الكوابيس. سأنتظر بضعة أيام وسأعاود تدخين الحشيش، وإن كان سيكون بشكل آخر، عندما أرغب فى التدخين حقًا.

أتحرك فى الشقة كما لو كان لى أعوام محبوسة فيها. أستشعر حوائطها، وحمامها، وأثاثها، كامتداد لى، وليس كأعداءٍ لى. إننى بخير، أعيش بسلام مع

نفسى، ومتشوقة بعض الشىء لمعرفة كيف ستكون حياتى فى السنوات المقبلة، كيف سأشيخ، كيف سأسمى ما يخصنى.

هاتفت ابنتى بنية دعوتها على الغداء، ولكنها قالت لى إنها ستذهب غدًا فى إجازة وإنها عليها أن تُحضِّر كل شىء. لم تكن تريد أن ترانى، وبالنسبة إلى كان هذا بمثابة إعتاق، فحتى الآن ليس لدى الكثير لأقوله لها. فى الشهور المقبلة، ورمها وورمى سينموان بشكل متوازٍ، ولكن ورمى، ذلك الذى ولدت منه، ينمو نحو إمكانية حياة جديدة، ومختلفة، بينما ورمها ينمو نحو تكرار آلى لما رآه يحدث فى آخرين. مرسدس لم تدر بعد أنها امرأة، وأن هذه الحالة تتضمن أمرًا - عاجلاً أم آجلاً - يجب أن تواجهه إذا أردنا أن تواصل الحياة جدواها.

وضعت مقعد أمى بجانب نافذة الشرفة الصغيرة التى تطل على شارع "ماريا مولينر"، وهو شارع رحب، ولكنه هادئ. وأنا جالسة على المقعد أكتب تلك السطور التى ربما ستكون السطور الأخيرة، على الأقل ستكون السطور الأخيرة من حياتى السابقة، التى أنهيتها فى "بروكسل" فى اليوم التالى لالتقائى مع قرينتى. وديعة هى دقات ساعة البندول مثل دوار الفراغ الذى يخرج منه مستقبلى. لدينا الحياة بأكملها أمامنا، لا داعى للاستعجال. فى تلك اللحظات أشعر أن الغرابة المعوية قد اختفت، وألاحظ غيابها مثل غياب شعرى مع كل مرة أحنى فيها رأسى. ثمة رجلان

يتشاجران فى الشارع، أمام شرفتى؛ يشكلان جزءًا من ذلك المجتمع، من تلك الماكينة التى يظهر فيها إنريكى، زوجى، بشكلٍ جيد جدًا. يعيشون بداخل كابوس يشعرون فيه أنهم خلاّقون. عندما يستيقظون من ذلك الحلم، سأكون قد سبقتهم بحياة.

فجأة، سطعت الشمس بشكلٍ لا أستطيع معه الرؤية. من النافذة يدخل ضوء يغشى الأبصار وأبيض مثل ضوء حمام الفندق. فى منتصف ذلك الضوء، قريبًا جدًا، ستتجسد الشمس بشكل مظلم وجميل مثل شكل الشيطان، ولكنها لطيفة وحلوة مثل الشكل الإلهى.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١ـ «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ «إيتالوكالڤينو» رواية ـ عدد خاص ـ جائزة «فياريچيو».

١٢ـ القلعة البيضاء ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ ـ أين تذهب طيور المحيط ـ للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» ـ أدب رحلات ـ «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة ـ للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء ـ للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كويتسى» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب ـ للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» ـ متتالية قصصية ـ «جائزة كين».

١٧ ـ شوشا ـ للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٨ ـ شارع ميجل ـ للكاتب من ترينداد ـ «ف. س. نايبول» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ ـ الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورچ بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. جائزة بيريياروبيا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل للآداب.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كويتسى.. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. جائزة الفيمينا.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ الشلالات.. جويس كارول أوتس.. جائزة الفيمينا ٢٠٠٥.

٢ ـ العشب يغنى.. دوريس ليسينج.. جائزة نوبل ٢٠٠٧.

٣ ـ العالم.. خوان خوسيه مياس .. جائزة بلانيتا ٢٠٠٧.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg

خوان خوسيه مياس.

- أحد أهم الكتاب الإسبان.
- ولد فى بالنيثا بإسبانيا عام ١٩٤٦، وانتقل إلى العاصمة "مدريد" وهو فى السادسة من عمره وأقام فيها منذ ذلك الحين.
- درس الفلسفة والآداب بجامعة كومبلوتس. ويعمل الآن بالصحافة ولا تقل مقالاته من الناحية الأدبية جمالاً عن مؤلفاته القصصية والروائية.
- كتب الرواية والقصة القصيرة والمقالة وجمع بين احترام النقاد والمتخصصين والإنتشار الجماهيرى حيث تحقق كتبه أعلى المبيعات فى إسبانيا.
- بدأ حياته الأدبية برواية "العقل هو الظلال" عام ١٩٧٤، ثم توالت أعماله التى شكلت مسيرته الإبداعية ومن أهمها:
"امرأتان فى براغ".. "هى تتخيل".. "الحديقة الخالية".. "ساذج وميت وابن حرام وغير مرئى".
- ترجمت أعماله إلى أكثر من خمس عشرة لغة.
- حصل على العديد من الجوائز منها.. جائزة "نادال" ١٩٩٠ عن "هكذا كانت الوحدة"، وجائزة "ماريانو دى كافيا" ١٩٩٨، والجائزة الوطنية "ميجيل دليبيس" ٢٠٠٢، وجائزة "فرانثيسكو ثيريثيدو" ٢٠٠٥، ثم حاز على جائزة بلانيتا عن روايته "العالم" عام ٢٠٠٧، وهى أكبر جائزة أدبية تمنح فى إسبانيا وحصل عن الرواية نفسها على الجائزة الوطنية للرواية عام ٢٠٠٨.

الجائزة: جائزة "نادال".

أقدم جائزة إسبانية، تأسست عام ١٩٤٤، تكريماً لذكرى أستاذ الأدب "إخنيو نادال جايا" الذى وافته المنية فى العام نفسه دون أن يكمل عامه الثامن والعشرين. ظلت تمنح بانتظام لأكثر من نصف قرن كل عام فى يناير عشية احتفال "يوم الملوك". ساعدت هذه الجائزة على متابعة تطور الأدب الإسبانى ابتداء من النصف الثانى من القرن العشرين، وقد نالها فى أولى دوراتها "كارمن لافوريت" عن روايته "لاشىء عام ١٩٤٤، ونالها "فرانثيسكو كاسابيا" عن روايته "ما أعرفه عن مصاصى الدماء" فى آخر دوراتها عام ٢٠٠٨.

الرواية

تقف بطلة "هكذا كانت الوحدة" وجهًا لوجه أمام وحدتها المطلقة.. حيث تجد نفسها وكأنها هبطت من عالم آخر فجأة ولا تتوصل أبدًا إلى إجابة عن سؤالها: لماذا طُردت من هذا العالم؟ ترث من أمها دفتر مذكرات وأريكة وساعة حائط وتتماهى وحدتها مع ذكريات أمها فتجلس على أريكتها أمام ساعتها فتكتمل مفردات وحدتها - تطلب من مخبر سرى أن يراقب زوجها ولكنها سرعان ما تمل من تقاريره حين تكتشف أن مأزقها الوجودى أكبر من اكتشاف خيانة زوجها فتطلب منه هو الذى لم يرها أبدًا أن يراقبها هى.

الكاتب: خوان خوسيه مياس أحد أهم الكتاب الإسبان..

الجائزة: جائزة "نادال" ١٩٩٠.

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٦ جنيهات

ISBN# 9789774206858

6 221149 011816